

عبد الله أبو سنينة

احتواء



مجموعة قصصية



عبد الله أبو سنينة

احتواء

مجموعة قصصية

شكر خاص

شكرن لنظام المدارس الذي علمني كيفيت الكتابة.
ولولاه لما كنت قادر علا كتابت هاذا الكتاب...

هدف

لقد كانت زاوية كيس الأرز مثقوبة فتساقطت حبات الأرز كالثلج على رؤوس المتجمهرين حول الشاحنة الصغيرة. شاحنة تحمل ما تحمل من صناديق وأكياس المؤونة وثلاثة موظفين في الصندوق الخلفي يوزعونها علينا. نحن الأرقام؛ فبالغد سيكون تقرير المنظمة "تم توزيع ٤٠ كيس طحين و ٢٠ كيس أرز على ٢٠٠ لاجئ!" لن يقولوا أسمائنا. بل عددنا وكم تصدقوا علينا. لن يذكرنا حتى بأن أحد أكياس الأرز كان مثقوباً.

لكن ما يهم الآن هو أنهم فوق ونحن في الأسفل. نحن بحاجة للطعام.. بحاجة لهم.

لم آكل منذ أيام والآن عندما جاءت شاحنة مؤن لا أستطيع الحصول على طعام. يلتف الجميع حول الشاحنة كحجاج مكة، يتلمسون قضبان الشاحنة وأقدام الموظفين الذين يوزعون الطعام. إنهم الأعلان.

يجب علي أن أقترّب أكثر لأحصل على حصة من الطعام. لا يمكن أن أضع اللوم على هزل جسدي؛ فكلنا هزيلون هنا. لكن ربما قصر القامة هو السبب فأنا لست طويلاً كفاية لأرى ماذا يجري في الصندوق الخلفي ولم أستطع أن أتعين كم تبقى من المؤن.

تحيط بي أعمدة بشرية من كل جهة كقفص من عيدان الخيزران تحاصر طريدة ما. لكن بقرارة نفسي أعرف أن تلك الأعمدة طرائد مثلي أيضاً. قد تتفاوت فرص نجاة واحد عن الآخر إلا أننا نبقى الأسفلين.

"كيف يمكنني الصعود إلى أعلى؟"

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يدور في رأسي.. غير القمل بالطبع.

ألمني منظر صناديق المؤونة وأكياس الطعام تتناقل فوق رأسي دون استطاعتي لمسها. حاولت القفز ومد يدي لكن دون فائدة. حاولت أن أستعطف من كان بجانبني أن يمدني بصندوق طعام.

- سيدي؟!

- ها؟

- هل بإمكانك أن تلتقـ

لم يكمل الرجل استماعه لسؤاله عندما اقتربت يده من صندوق طعام. يده الأخرى كانت مشغولة بكيس بدا عليه الثقل. رمى الرجل الكيس على الأرض ليرفع يده الأخرى.. أحكمت يداه الهزيلتان على الصندوق. فرح الرجل بإنجازه فهرع خارج دائرة المتجمهرين دون أن يلتقط الكيس.

- سيدي؟!

لم يسمع.

- سيدي! لقد نسيت الكيـ

لا يريد أن يسمع.

مع تضاؤل أملها بالحصول على شيء من المؤن، نظرت نحو الكيس الذي تركه. كان مربوطًا بسلك حديدي غير محكم. فككت السلك الحديدي باصبع لتتفتح فوهة الكيس.

لا أعلم ما الذي جعلني أظن بأنه ربما كان هناك شيء يؤكل داخل الكيس. على كل، لم يكن هناك شيء قيم.. لقد كان يوجد كتب فقط.

"ما الذي أفعله بالكتب؟"

سؤال ثان أصبح يدور برأسي.

لم يدر السؤال الثاني كثيراً في رأسي لإدراكي بأنه ليس سؤالاً حقاً؛ لقد كان إجابة للسؤال الأول. السؤال المزمّن. "كيف يمكنني الصعود إلى أعلى؟"

أمسكت الكتب بيدي الاثنتين، كانوا سبعة كتب سميكة وثقيلة.

حملت أكبرهم ووضعتهم قاعدة الهرم من الكتب ثم وضعت فوقه الذي يليه بالحجم وهكذا تحت قدمي حتى ازداد طولي أكثر من قدم.

وقفت على الكتب لأرى ما لم أره من قبل. رأيت أوجه الموظفين على صندوق الشاحنة، وفي أيديهم المؤونة. مددت يدي بأمل الحصول على شيء. بدأت أصابعي تلامس الصناديق والأكياس

فشعرت بنشوة داخلي لم يعكر صفوها سوى تناقص كمية
المؤونة باستمرار. حاولت بجد أكبر للحصول على الطعام..
أخيراً، حصلت على صندوق كبير.

نزلت عن كومة الكتب وأنا مسرور لإنجازي. كنت ممسكاً
بالصندوق بكلتا يدي فلم أعرف كيف كان بإمكانني حمل الكتب.
لم أفكر بذلك طويلاً عندما تذكرت بأن لدى جارنا العجوز الذي
أصبح كفيفاً الكثير من الكتب التي لن يحتاجها. وكل ما سيكون
علي فعله هو استعارة كتب من عنده في المرة القادمة لأصعد
عليها لأستطيع الحصول على الطعام.

هدية عيد ميلاد

اليوم عيد ميلادي الثامن عشر. ذهبت إلى المدرسة ووجدت ثلاثة من أصحابي بانتظاري عند الحمامات المتسخة والمخربش على جدرانها. كانت قطعة من الكيك الرخيص تعلوها شمعة يتيمة بانتظاري أيضًا. أخرج أحد الأصحاب ولّاعته من جرابه وأشعل الشمعة وأشعل بعدها سيجارة ومدها لي. سحبت سحبة أولى وأتبعتها بثانية. لم أكتفٍ منها، فنشوة التدخين كانت أخّانة. لكنني لم أرتو من شفة سيجارتي فالمدبر أدركنا. هرب أصحابي وتركنا أنا وحيداً لتلقي العقاب.

ذهبت ذليلاً إلى مكتب المدير. ستائر مخملية.. بلاط رخامي.. مكتب من خشب البلوط.. لوحة كبيرة لرئيس الدولة مصافحاً مدير المدرسة والابتسامة تعلو وجهيهما. لكن المدير كان ليئماً جداً معي! كلماته ملأتها القسوة. زأر بي بشدة "أنت رجل مدلل.. كلاً، أنا مخطئ.. فأنت لست رجلاً، لكنني محق بوصفي إياك

مدلاً.. التدخين فعل غير مسؤول.. أنت غير مسؤول.. ستُبعد
عن المدرسة لثلاثة أيام." لقد دمرني بكلماته، وسحقني.. تماماً
كما كان يسحق عقب سيجارته تحت حذاءه!

بدائية

اليوم، الثالث والخمسون بعد المئة للعام السادس والسبعين
يسجل أعظم وصول علمي للإنسان - إلى الآن - خلال هذه
الفترة. نحن لسنا أول بشر على الكوكب، نعلم ذلك. لكن لدينا
معلومات قليلة جداً عما حصل للأسبقين. لن أقول الصورة لم
تكتمل بعد فنحن لا نملك إلا لمحات غير واضحة لصورة عن
العالم السابق.

نجا قليل منا. لكننا لا نعلم ماذا حصل حقاً لإبادة البشر والشجر
والحجر! أسميناهم "الأوائل" وهم من بقوا على قيد الحياة داخل
ملاجئ عملاقة، هم أجدادنا وآباؤنا، والجيل الأول من الإنسان
الجديد ولد داخل تلك الملاجئ. لم يبق أحد من الذين شهدوا
الموت الجماعي لإخواننا البشر. حصلنا على بعض الكتب
المتعلقة بالعلوم والرياضيات من العالم السابق، لكننا لم نحصل
سوى على قصاصة صغيرة من صحيفة من العالم السابق بما

يتعلق بالإجابة عن سؤالنا عمّا حصل للعالم. كان مكتوباً بها
"العالم كله هيروشيما!".

كانت تلك القصاصة مخبأة داخل صندوق دُفن تحت الأرض
على عمق مترين في أحد الملاجئ الضخمة. إن الملاجئ كبيرة
جداً إذ وصل طول وعرض بعضها إلى عشرات الكيلومترات
وحوت الحيوانات والطعام والكثير من الأمور التي سرّعت في
عملية تطورها الحالي، بدا الأمر كأن النهاية كانت متوقعة.

لا يوجد أحد من الذين عاصروا نهاية العالم السابق، لم يبق أحد
من "الأوائل" ليساعدنا أو يخبرنا ما حصل، ولم يُدون أحد ذلك!
على الأقل، لم يصلنا شيء منها. لا يوجد سوى تلك القصاصة
التي وجدناها تحت الأرض.

هل "هيروشيما" هو الفايروس الذي قضى على الحياة السابقة؟
أم هو طاغية دمّر العالم؟!

لم أهتم كثيراً حول ما حصل للعالم السابق؟ الإجابة سهلة: في
أحد الصفحات التي وجدناها داخل الملاجئ قرأت عبارة "وقفت

على أكتاف من سبقوني من العلماء. " القائل هو شخص اسمه نيوتن، عالم في العالم السابق. وأنا بصفتي عالماً فإنه من واجبي المساعدة في بناء هذا العالم.

نحن نعلم أن الإنسان وصل إلى النجوم إلا أننا لا نعرف كيف، ليس بعد. لكن نحن على الطريق الصحيح لقيادة هذا الكوكب إلى النماء والازدهار، فنحن اليوم توصلنا إلى أعظم اكتشاف على مر تقويم البشر الجديد، اكتشاف سيقودنا إلى عالم أفضل لا محالة.

تعب العلماء والمتخصصون، تعب الإنسان كثيراً للوصول إلى هذا الإنجاز الذي سيدفع بعالمنا درجات كبيرة نحو التطور، فنحن نؤمن بأن السيطرة على أكبر الأمور تأتي بعد التحكم بأصغرها. اليوم، وبكل فخر واعتزاز أقولها، استطعنا التوصل إلى طريقة نشطر فيها الذرة.

استسلام

لم أرغب يومها بالذهاب إلى الجامعة فالجو كان ماطرًا وعاصفًا جدًا لكن وجب علي الذهاب لحضور محاضرة في مساق "أنظمة الحكم" والذي كان مسيئًا لمعدلي التراكمي. كان الدرس سيكون حول الأسباب التي تساهم بعدم تجاوب الشعوب مع نظام حكم جديد جيد جاء بعد حكم استبد شعبه لزمان طويل. نهبت يومها سدى فالمحاضر لم يأت لأن سيارته كانت قد علقت بأحد الطرق قبل وصوله الجامعة. عدت إلى البيت مكسور خاطر لأننا لم نأخذ المحاضرة المهمة.

قبل وصولي المنزل سمعت صوتًا داخل مكب النفايات وعلمت فورًا أن القط المرقط هو من أصدر الصوت فهو معتاد على البحث عن غذاءه داخل مكبات النفايات. لم أكرث كثيرًا وأكملت طريقي نحو البيت. عند فتحي لباب المنزل وإدخالي قدمي اليمنى لاحظت الفارق الكبير بين درجة الحرارة في الداخل والخارج فأشفقت

على القط المرقط فذهبت وجلبته إلى الداخل. جففته أولاً ثم وضعت له حليباً داخل صحن وقطعت له بعض المرتديلا لكنه لم يقترب رغم أنه كان يحتاج إلى الغذاء. ظننت أولها أنه شعر بالحرَج أن يأكل أمامي فذهبت من عنده، لكن عندما عدت رأيت الطعام مرمياً والحليب مسكوباً على الأرض دون أن ينقص منهما شيئاً.

كنت تعباً يومها فذهبت لأنام قليلاً رغم أن الساعة لم تكن قد بلغت السادسة حتى. أخبرت أخي الصغير بأنه يمكنه اللعب مع القط وإطعامه إن قبل الأخير ذلك. استيقظت من نومي بعد حوالي خمس ساعات وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة. لم يكن الجو العاصف قد هدأ. سألت أخي عن القط فأخبرني أنه هرب. علمت أن لا مهرب للقط سوى مكب النفايات الذي وجدته به. فعلاً، ذهبت ووجدته ينبش عن الطعام! حملته معي وعدت به إلى المنزل مجدداً.

كان علي التحضير لدروس اليوم التالي ووجدت أيضاً أن الدروس ستكون أكثر من المعتاد لأن المحاضر قرر تعويض

المحاضرة الفائتة في اليوم التالي. قرأت قليلاً لكن دفع الفرائش
أغرائني للذهاب إلى النوم. قبل أن أذهب إلى النوم تأكدت أن
نوافذ وأبواب المنزل مغلقة.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي كان أخي الصغير قد ذهب
إلى مدرسته فبحثت بنفسني عن القط داخل المنزل فلم أجده. لم
أبحث طويلاً لإدراكي أن الطريق إلى الجامعة يأخذ وقتاً أطول
أيام المطر. خرجت من المنزل ومشيت قليلاً نحو الشارع الرئيسي
بحثاً عن سيارة أجرة، لكن قبل إيجادي لسيارة أجرة وجدت
القط مغطى بالأوساخ داخل مكب النفايات وبفمه بقايا طعام
فاسد! وجدت القط ووجدت معه موضوع المحاضرة التي
عوضناها يومها.

سمكة

يمكنك تعلم درسًا مهمًا عن الطبيعة بمجرد النظر إلى حوض السمك الصغير هذا. سمكة برتقالية صغيرة تسبح آمنة بالحوض ولا يعكر صفو ذلك سوى سمكة ضارية كبيرة تهجم عليها وتأكلها. لن تأتي أي سمكة أكبر من تلك التي أكلت السمكة البرتقالية في هذا الحوض، لكن هناك في الخارج، سلسلة الافتراس تطول وتطول.

كنت أعلم بأن الشرطة سنأتي لأخذي، كنت أنتظرهم حقًا. هناك في البيت المنعزل عن المدينة. بيت شاطئي مبني من خشب البلوط، منعزل وهادئ حيث يبعد أقرب مركز حضاري أكثر من خمسين كيلو مترًا عنه.

انتظرت قدوم الشرطة بينما كنت انظر إلى السمكة البرتقالية الصغيرة تحاول الهرب من السمكة الضارية. قُرْع باب المنزل مع

اللحظة التي وقعت السمكة الصغيرة ضحية بين فكي السمكة الكبيرة. فتحت الباب لرجلي شرطة. بدأ أحدهما الحديث سريعاً:
- أنت رهن الاعتقال..

مددت يداي كي يقيدهما لكنه لم يفعل. قال الشرطي الثاني:

- لا فائدة لهم من تقييد يديك.. دون جلوسك على الإنترنت..

طلب مني الشرطي الأول الانصياع لأمرهما بالركوب بسيارتهما التي جاءت لاعتقالي. لم أماطل بذلك فأنا لم أطلب منهما سوى دقيقتين حتى أضع بعض الطعام في حوض الأسماك. اقتربت من الحوض ورششت بعضاً من حبوب الغذاء للسمكة الضارية. لم يكن هناك أثر للسمكة البرتقالية.

ركبت وحيداً بالمقعد الخلفي في سيارة الشرطة وركب الرجلان في مقعد السائق والمقعد المجاور له. فصل بين المقعدين الأماميين والمقعد الخلفي شبك حديدي دقيق الفتحات. لم يكن

بإمكاني خلع ذلك القفص رغم أن يداي لم تكن مكبلتين. داس
أحد الرجلين دواسة الوقود لينطلق بالسيارة وسط الطريق
المنعزلة. رويداً رويداً كنا نبتعد عن الشاطئ.

حاولت تجنب الاستماع إلى حديث الشرطيين إلا أنني استرقت
السمع لبعضه..

- ألا تريد التدريب على قيادة السيارة؟

سأل الشرطي في مقعد القيادة زميله.

- لا.. أنت تعرف كيفية القيادة وهذا كاف..

- لا.. قد أستقيل أو آخذ إجازة.. قد تضطر إلى قيادة

السيارة في يوم من الأيام

- ..تستقيل؟!

- نعم.. فأنا مريض جداً.. يجب علي أن آخذ الدواء كل

ست ساعات... وإن لم آخذه سيغمر علي وستسوء

حالتي..

- هل جلبت الدواء معك؟

- نعم.. إنه بكيس في الصندوق أمامك..
- ماذا لو نسيتَه؟
- لا شيء..

قال الشرطي الذي يقود وتشاء ب ملء فمه قبل أن يكمل:

- سنعلق هنا لفترة..
- هل أنت نعس؟

سأل الشرطي الذي كان يجلس بجانب السائق زميله ولكني شعرت بأن السؤال كان موجهاً لي. أجبت بنفسى "نعم" ونمت عميقاً.

لم أصح من غفوتي إلا وأنا مرمى فوق غطاء محرك السيارة حيث خُلع القفص الفاصل بين المقعد الخلفى والمقعدين الأماميين بسبب اصطدام السيارة بصخرة كبيرة على جانب الطريق. ويبدو أن القفص كذلك قد خفف الصدمة على بدنى فكلا

الشرطيين كانا على الأرض غير واعيين لما كان يدور حولنا. في
وسط مكان بعيد عن أي مكان مأهول بالسكان.
أنا.

وشرطيين على الأرض.

أحدهما مريض.

بإمكان السمكة البرتقالية الهرب والنجاة، لكن ذلك يعني موت
السمكة الضارية.

كان على السمكة البرتقالية الصغيرة اتخاذ قرار بسرعة.

رخصة قيادة

لدي أقل من خمسة عشر دقيقة؛ فجهاز مراقبة النوبات القلبية
خاصة ابن أخي أرسل إشارة إلى هاتفي المحمول ويجب علي أن
أسرع لمساعدته.

يسكن ابن أخي مع والده ووالدته، لكن بما أن والده يعمل خارج
المدينة، وأمه مريضة في المستشفى، كنت أنا الخيار الثالث
والأخير لمساعدة ابن أخي.

المشكلة في موقع المنزل أنه بعيد نسبياً، وليس هذا فقط، بل إن
الطريق من أصعب الطرق، والاتجاهات حتماً ستربك إن لم تكن
ذهبت إلى هناك عدة مرات وحفظت الطريق.

وضعت حزام الأمان وانطلقت بسرعة على الأسفلت الأسود.
تجاوزت سرعة السيارة المئة ميل بالساعة لكن هذا لم يمنعني من
محاولة الإسراع.

تبقى لي حوالي سبع دقائق وأنا لم أقطع نصف المسافة بعد،
وعقارب الساعة تدق بانتظام، على عكس دقات قلب ابن أخي.
مؤشر عداد السرعة يرتفع رويداً رويداً.

هنالك إشارة على يمين الطريق تشير إلى حد السرعة المسموح
به: ٩٠ كم بالساعة. وذلك يساوي أقل من ٦٠ ميلاً، وكنت أقود
السيارة ضعف تلك السرعة. كنت بحاجة إلى خرق ذلك
القانون.

لا شيء أمامي سوى الأسفلت الأسود، ودورية شرطة.
توقفت بسرعة وقبل أن يبدأ الشرطي بالكلام قلت له:

- There's an em... . . . هناك حالة طارئة!! يجب أن

أسرع!

أخذت لحظة قبل إدراكي لحقيقة أنني لم أكن بالولايات المتحدة
فبدأت الكلام بالإنجليزية. رد الشرطي:

- السرعة الزائدة هي ليست السبب الأول لإيقاف السيارة..

رد الشرطي أعادني إلى حقيقتين أخريين: الأولى، أنني امرأة،
والثانية، أنني الآن في السعودية.

غروب

- لم نحمل متاعاً كافياً!
- قالت زوجتي محتجة.
- كافياً لمانا؟
- سألت بينما كنت أنظر إلى الغروب.
- للرحلة!
- أدبرت رأسي نحوها وسألت مستغرباً:
- رحلة؟!
- نعم.. حتى نعود!
- ومتى سنعود؟!
- برأيي أن نعود عندما ينقصنا الطعام!

أعدت نظري نحو الغروب ورأيت الشمس تنزل وراء الأفق، ومنذ
ذلك الحين، لم تشرق مجددًا.

وجه حنظلة

"صفد، هناك ولدت وهناك سأموت وإن لم أكن سأموت هناك، سأموت وأنا أحاول أن أموت فيها." ظللت أقول هذا لنفسي بعد خروجي أنا وعائلتي من صفد. خرجنا ولم آخذ معي شيئاً، أذكر عندما ركضت عائداً إلى منزلنا لأجلب مدية خشبية صنعتها بنفسني لكن أُمي أمسكتني وعنقّتي صارخة "وين رايح يا محفوظ؟! أسبوع بالكثير وراجعين." رغم النبرة الغاضبة التي قيلت بها تلك الكلمات إلا أنها ألقت على قلبي بسكينة جردته من أصغر دقة قلقه. خرجت من صفد دون أن آخذ معي شيئاً لكن كل شيء أخذ مني.

مر أسبوع ولم نعد. بدلاً من ذلك رسينا في دمشق وهناك تحولت الأسابيع إلى شهور والشهور إلى سنوات والسنوات إلى معاناة. بدا على جميع من غادر صفد أنه نسيها. بحالتي أنا كان لدي شيء يذكرني بها، فبعدما خرجنا من فلسطين ملمت حبيبات

التراب القليلة التي كانت عالقة في حذائي. لا أعرف إن كانت تلك الحفنة ستكون أكبر لو لم يكن حذائي مثقّباً أو أن تلك الثقوب هي التي سربت التراب إلى قدمي ولذلك لم أعلم إن كان علي شتمها أم شكرها! أمر شتمته كان تنقلنا المستمر بعد دمشق. تنقلنا إلى كل مكان إلا المكان الوحيد الذي وددت الذهاب إليه.

مكثنا في لبنان لسنوات وبقي الجميع هناك إلا أنا فأنا قطعت نصف الكوكب وأنا في الثالثة والعشرين نحو أمريكا الجنوبية متهرباً من الماضي.. إلا من حفنة تراب إتخذتها رفيقاً في سفري وزميلاً في سكني.

في أواخر عشرينياتي وأول ستينات القرن الماضي تزوجت فتاة من الجالية الفلسطينية هنا. كانت والدتك تحلم بتأسيس صحيفة بالحرف العربي هنا لكنها لم تستطع تحقيق ذلك الحلم لكنها حققت حلمًا أكبر من ذلك عندما عادت إلى فلسطين.. حتى وإن كانت زيارة مؤقتة. قدمت أوراقها وقتها لأسافر معها لكن السلطات هنا منعتني من مغادرة البلاد لأسباب أمنية ظرفية وأخبروني بأنه علي المحاولة لاحقاً.

حاولت بعدها ولم يتغير رد السلطات. ما تغير كان وفاة والدتك دون تأسيسها للصحيفة. كانت قريبة من ذلك كثيراً فهي كانت قد جمعت مئات المقالات عن فلسطين والعالم العربي واتفقت مع كتاب ومؤرخين عرب كثيرين وجهزت أول بيت سكن أهلها فيه هنا ليكون مكتب الصحيفة. فعلت هذا كله وهي حامل بك. نشرت والدتك الكثير عن فلسطين في مجلات وصحف تنشر باللغة الإسبانية لكن وطنيتها وعروبتها كانت أكبر من أن تكتفي بذلك فأرادت أن تكون سبباً في تحريك كل المغتربين عن وطنهم. كانت مثلاً شامخاً على أننا خرجنا من وطننا لكن الوطن لم يخرج منا فكانت آخر كلماتها ووصيتها أن أنهى ما بدأته هي. انتشرت الصحيفة في أرجاء البلاد كلها وأصبح لفلسطين صوت هنا لكنني رغم ذلك لم أتخل عن حلمي الأزلي برؤية فلسطين مجدداً. أن تكون لاجئاً فلسطينياً يعني أنك تتميز عن باقي مليارات الكرة الأرضية بحلم آخر، حلم العودة. بعد سنوات سُمح لي بمغادرة البلاد فسافرت إلى الأردن وبخاطري أنني سأذهب بعدها لزيارة فلسطين. كنت أعلم أنني لن أستطيع زيارة صفد لكنها روضة في الجنة وباقي الجنة لا يقل ربانية

عنها. على ما يبدو، أنا لم أكن صالحاً أو قديساً لأستحق دخول الجنة، فعلى جسر الأردن أُعلّمت أنني ونسلي لن نستطيع دخول فلسطين. الحالة الوحيدة التي كانت ستسمح لي أو أي أحد من سلالتي بدخول فلسطين هي أن تتحرر.

أُخرج آدم وحواء من الجنة السماوية وأنا أُخرجت من الجنة الأرضية. كان عمري ثلاثة عشر عاماً عندما خرجت منها ولم أعش يوماً آخر بعد ذلك اليوم فالإنسان خلق من طين وطيتي مجبولة من تراب فلسطين.

نتغزل بفلسطين وهي بزيّ الحداد.. ماذا سنفعل يوم ترتدي فستان زفافها؟! لا أعلم، ولن أعلم فالمهر الذي قدمته لم يكن كافياً. ما أصعب أن تذوق طعم الجنة ثم تُلعن منها. أنا هنا ملعون على فراش الموت هذا فمهدي لن يكون قبري. سيكتبون على شهادة وفاتي أنني توفيت عن عمر يناهز التاسعة والسبعين، ست وستون منها كانت مجرد سنوات لا حياة فلا حياة لفلسطيني بعيداً عن وطنه. أنا لست حنظلة ووالدتك ليست حنظلة بل أنا وهي وكل من شُرِدَ ونُكِبَ حنظلة.

يا بني، وصيتي لك هي أن تعتني بحفنة التراب التي أكتنزها وأن
تؤمن بأن وجه حنظلة سيبان يوماً ما وأن تبدل أيضاً قصارى
جهدك لتحقيق ذلك.

والدك، محفوظ عقّاد

١١-أغسطس-٢٠١٤

سانتياغو

قضية

جاء رجلان إلى القاضي يحتكمان في مخاصمة بينهما فاشتكى الرجل الأول "لقد لكمني هذا الرجل!" فرد الآخر "كلا! لقد وكزته باصبع فقط!" سأل القاضي الرجل الأول "وهل آلمك؟" فأجاب "ليس حقاً!" ثم سأل القاضي الرجل الثاني "وماذا جاء بك إلى هنا؟" فأجاب "إنني أرفع قضية ضد هذا الرجل الذي كسر اصبعي!" سأل القاضي الرجل الأول "هل كسرت اصبعه حقاً؟" فرد الرجل "لقد انكسر عندما لكمني!" فصحه الرجل الثاني "وكزتك باصبع واحد فقط!!" كان سؤال القاضي التالي موجهاً للرجل الثاني "لماذا وكزته؟" فأجاب "لأنه سرق سترتي الصوفية التي تقيني من برد هذا الشتاء!" استفسر القاضي مجدداً "تلك التي يلبسها الآن؟" أجاب الرجلان سوياً "نعم!" قال القاضي "جيد! فالسترة ليست قضيتنا!" ارتفع صوت الرجل الثاني بعدما لم يصدق كلام القاضي "كيف ذلك حضرة القاضي؟!" أجابه القاضي "جئت لتشتكي عن كسره لاصبعك

وليس السترة الصوفية!" سأل الرجل الثاني مجدداً "وماذا عن كسره لأصبعي؟" فحكم القاضي "ليس ذنب الرجل أن اصبعك ضعيف. أنت بدأت الاعتداء وهذا ذنبك!" انخفض صوت الرجل الثاني يأساً وقال "والسترة؟!" لم يجب القاضي، فكرر الرجل سؤاله "والسترة؟!" لم يجب القاضي هذه المرة أيضاً لكن الرجل الثاني بقي يسأل "والسترة؟!" إلى أن وقف القاضي ولبس معطفه الثقيل وذهب.

مفتاح

استيقظ جبريل ممسكاً القلم الذي كان يكتب بواسطته في الليلة السابقة قبل أن يغلبه النعاس. رأى والدته مكبلة القدمين واليدين لكنه لم يقل شيئاً بخصوص ذلك الأمر. شكرها على وجبة الفطور وقبل يدها دون أن يجد عناءً بإزاحة القيد المعدني عن ظاهر يدها. اغتسل ثم تهنّدهم وحمل كتبه الجامعية ونزل إلى الشارع الرئيسي لإيجاد سيارة أجرة.

توقفت له سيارة. كان المقعد الأمامي هو الوحيد الشاغر فركب فيه ووضع الكتب في حضنه.

نظر جبريل إلى يساره فوجد يدي السائق مكبلتين وهما موضوعتان على عجلة القيادة وكانت قدماه مكبلتين أيضاً، وكانت السلاسل على قدميه تصطك ببعضها البعض كلما داس السائق على دواسة مختلفة.

استغرب جبريل من واقع بقاء السائق مكبلاً.

نزل من السيارة أمام باب الجامعة ونزل الركاب الثلاثة من
السيارة وكانوا جميعاً مكبلين.
رأى جبريل صديقاً له على باب الجامعة فسلم عليه وتبادلا
الحديث طوال الطريق من باب الجامعة إلى ساحة كلية التربية
حيث يدرسان.

كان غالبية الطلبة مكبلين، بعضهم بالأيدي وبعضهم بالأقدام
والبعض بالأطراف الأربعة.

- لمَ لا تستخدمون المفاتيح؟!

سأل صديق جبريل الطلبة المكبلين.

- أين هي؟

رد أحد المكبلة أقدامهم سائلاً.

- فوقكم، بجوار الشمس.

ضحك جميع من كان مكبلاً إلا الذي استفسر عن مكان المفاتيح.
رفع الشاب نظره إلى أعلى ليغمض عينيه بسرعة وينزلهما

بسبب النور القادم من الشمس. وضع السائل يده على جبينه
لتلقي بالظلال على وجهه قبل أن يرفع نظره إلى الأعلى مجدداً.
أبقى السائل نظره إلى أعلى ورفع يده نحو المفتاح. ألقى السلام
على الشمس وأخذ المفتاح.

الجرّمة

"تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت
تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت
تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت"

استيقظت على صوت المنبه.

- ألم تجد غير هذا الإزعاج منبهاً لك يا عمر؟!

سألني أيمن، زميلي في السكن.

- لا أذكر أنني وضعته أصلاً! لا يوجد محاضرات اليوم!

يقوم أيمن من النوم قبلي دائماً فهو مجتهد ومتفوق بكل شيء
يخوض غماره. الأول على الدفعة وأفضل لاعب بفريق الجامعة
لكرة القدم، واليوم، سيتم تكريمه بجائزة أفضل شاعر بالجامعة.
قد يكون ربط ربطة العنق هو الأمر الوحيد الذي أستطيع فعله
على خلاف أيمن. نهضت من الفراش بحالة أرثى لها وساعدته

بربطة العنق. أحسست بتشنجات بيدي وهما تربطان ربطة
العنق حول رقبة أيمن.

- سأتي أنا بالأغراض.

قلت لأيمن.

- يمكنني جلب ما يلزمنا أثناء عودتي إن أردت!

رد أيمن وهو يرش العطر على بدلتته.

- لن يكون هناك مجال بيديك؛ يد لحمل الجائزة واليد

الأخرى لاحتضان أجمل فتاة من الحفل.

قلت له ممازحًا.

احمرّ وجه أيمن من مجرد الفكرة، رغم شخصيته الجذابة إلا أنه

يشعر بتلبك أمام الحشود وأمام الفتيات.

بحثت بنظري على مكتب أيمن عن قلم وورقة. حملت قلم حبر

وورقة اقتصاصتها من أحد دفاتر أيمن وذهبت نحو المطبخ أسجل

ما يلزم السكن.

من السخيف أن يجلب شخص واحد ما يلزم لأكثر من شخص!

ألم يكن من الأفضل أن يشتري كل شخص ما يلزمه بنفسه؟!
بدأت بتسجيل ما يلزمنا، وبينما كنت أكتب على الورقة دلف
أيمن إلى المطبخ.

- منذ متى تكتب باليد اليسرى؟!

سأل أيمن مستغرباً.

نقلت القلم من اليد اليسرى إلى اليمنى.

لا يهم حقاً إن كتبنا باليمنى أم اليسرى أم الإثنتين معاً، فنحن لن
نكتب بجودة ودقة ما يكتب ذلك الوغد فهو يكتب من رأسه.

ذهبت وعدت من السوق خلال ثلاث ساعات واشترت حاجيات
لا أذكر أنني سجلتها لكنك تفعل أموراً لا تدركها أو تتذكرها وأنت
نعس.

لم يكن أيمن قد عاد من حفل التكريم لكنه جاء بعدي بدقائق قليلة. كنت أرتب الأغراض التي اشتريتها في الثلاجة وعلى الرفوف وفي خزائن المطبخ.

دخل أيمن المطبخ فسألته مداعباً حتى قبل أن يلقي السلام.

- أين الحسنات؟!

- في رأسك.

أخرجت دجاجة من أحد الأكياس التي جلبتها ووضعتها على المجلى وأخرجت سكيناً من الجرار الأول وبدأت أقطع الدجاجة لأغلفها لحفظها. هذه المرة الأولى التي نشترى بها دجاجة نيئاً.

- من اقترح أن نشترى دجاجة نيئاً؟!

سأل أيمن مستنكراً.

- إن لم يعجبك اذهب واشتر أغراضك بنفسك!

لم يرد أيمن وخطا نحو الباب خارجاً قبل أن يلتف مجدداً نحوي وأنا أقطع الدجاجة.

- لقد كانت السكين بيمينك لكنها الآن باليسار! هل أصبحت أشوَّلاً؟!

سألني أيمن متعجباً من حقيقة استخدامي ليدي اليسرى.

- إن يدي اليسرى أقوى.

- كلاً! إنها ليست كذلك!

اقترب أيمن مني ونظرة الشك تعلو وجهه.

- لقد تغيرت!

قال أيمن.

- لم أتغير!

- أنت لم تعد عمر نفسه!

- حقاً؟!

سألته باستخفاف قبل أن أسحب السكين من الدجاجة وأغرسها

بين ضلوعه لكنه سحب شوكة معدنية من مصفاة الأوعية

الموجودة على المجلى وغرسها بكتفي الأيسر فسقطت السكين من
يدي وسقط أيمن كذلك على الأرض.. أمام قدمي.

رأيت أيمن على الأرض فارتعبت حتى قبل أن أرى السكين، علمت
أن أمراً شيناً قد حصل لأيمن، ولي أيضاً، فأنا رأيت قطرات دماء
تتساقط من كتفي الأيسر.

السجين

في ليلة ظلماء، حيث لا قمر في السماء ولا سبيل للضياء، كان
سجين في زنزانة لا تتسع لأكثر من فرد، يصك أسنانه ويفرك
بدنه من شدة البرد. متكوراً كجنين كان السجين، رأسه إلى أسفل
وركبتيه عند الجبين. لم يكن هناك إلا نافذة صغيرة في
الحائط، لم تكن كافية لإخراج رائحة الغائط. أسوداً كان لون
جدران الزنزانة، ولم يشعر السجين سوى بالمهانة.

ما الذي أوقع به في ذلك المكان، حيث لم يجد عطفاً ولا حنان؟
ربما كان السجين نفسه! هذا إن أخطأ بأمسه!

أو لعله كان الظلم! فأضاع العمر والحلم!

بينما كان يتأوه على السرير، سمع السجين صوتاً كالصرير.
تساءل إن كان ذلك صرصاراً، أو ربما كان عصفوراً. لكن لا
يعيش هناك غير الموت، لا حركة ولا يُسمع به الصوت.

نهض السجين إلى الشباك وكان حقاً يشعر بالارتباك. سمع
الصرير من جديد فأمسى بصره من حديد فرأى ضوءاً باهتاً
وسمع أنيناً خافتاً. بجانب الضوء كان مصدر الأنين، جسم
يتلوى داخل كيس متين، ورأى السجين رجلاً يحمل بيده معولاً.
ارتعب السجين!

فأصبحت ركبته كالعجين!

لم يكن السبب ما رآه، بل كان مشهداً من ذكراه. أمست ذاكرته
كل ما يرى فتمنى أن يُوارى تحت الثرى؛ فماضيه تعذيب وتقتيل
ملئى بالصراخ والعيول، وحاضره أمنية بحبل طويل.

الهروب

"يمكن لهذه الكتب أن تنقذك! إنها أفضل سلاح بإمكانك الحصول عليه! لم لا تدرس؟! يموت الناس للحصول على فرصة للدراسة! الساعة الثامنة، يجب أن تكون بالمدرسة الآن!" صرخت بي أمي صباحاً لأنني كنت متأخراً عن المدرسة. لقد أعطتني محاضرة عن أهمية التعليم لمقاومة الاحتلال بينما كانت تشير إلى حقيقتي المدرسية. أومأت برأسي مشيراً إلى موافقتي رأيها رغم أنني لم أكن كذلك حقاً؛ فبطريقة ما، إن الاحتلال من أفضل الأمور التي حصلت لنا فلو لم يكن هناك احتلال لما اهتممنا كثيراً بالتعليم، أليس كذلك؟ أم أن المسألة فقط بالكيفية التي يعرضها علينا الأجيال السابقة؟ فأفراد عائلتي الذين يكبروني يظهرون التعليم على أنه علاج لمرض ما لكنني أظن أن التعليم حصانة فلو كنا متعلمين حقاً بالمرتبة الأولى، لما كنا تحت الاحتلال الآن، على ما أعتقد!

أعلم أنه من الغريب لدافع عن التعليم بأن يكون متأخراً عن المدرسة لكن الحقيقة أن الحياة أهم.

أولويات.

وأولويتي هي أن أبقى على قيد الحياة.

شخصياً، عشت ببؤس طوال حياتي لكنها على الأقل "حياة".
أعلم أنني بأس لكن كلما ازداد بؤسك ستزيد فرصك بإيجاد السعادة؛ فالسعادة أمر نسبي وأي شيء غير العيش ببرّ القدرة هذه سيكون أفضل. لكن مهلاً! إن كانت مدينتي برّ قدرة فماذا سيجعل ذلك منا؟!

توقفت عن الحديث مع نفسي عند تلك النقطة وحملت الحقيقة الثقيلة على ظهري. توقفت قليلاً عند الباب. نظرت إلى أُمي وأختي الرضيعة بين يديها. منزلنا عبارة عن مقطورة حصلنا عليها بعدما فقدنا منزلنا في الحرب الأخيرة. لم أنظر إلى جدران المقطورة فلا يوجد أي ذكريات معلقة عليها. تلك الجدران رمز للذل. غادرت المقطورة وأغلقت الباب خلفي.

لم أكن ذاهباً إلى المدرسة، عوضاً عن ذلك، كنت بطريقي إلى الشاطئ حيث كانت تنتظرني عبّارة ستحملني نحو المستقبل. عملت بعد المدرسة قرابة السنة لأستطيع تأمين مبلغ سعر تذكرة العبّارة ومبلغ احتياطي. عملت بمصانع مختلفة وبالأمن وبالصيد وبأعمال أخرى أيضاً.

كان اليوم هو اليوم الذي سأترك فيه كل شيء ورأني لكنني حرصت على عدم معرفة أي أحد برحيلي قبل أن أرحل. لم أسلك طريقاً مكتظة بالناس كي لا يتم التعرف علي. إن رأني أحد من معارفي فلن يتوقف عن الأسئلة:

لم أنت لست بالمدرسة؟!

هل تريد العمل معي مجدداً؟

كيف حالك؟

إلى أين أنت ذاهب؟

توجهت شمالاً نحو الحدود ومن هناك نويت أن أتجه إلى الغرب نحو الشاطئ لكن خطتي لم تسر كما أملت. بعدما وصلت الحدود

الشمالية غيرت مساري تجاه الغرب. لم يكن هناك أي إشارات
تدلني على الطريق سوى السياج المكهرب. لم يكن علي سوى
المشي بمحاذاته حتى أصل الشاطئ. كنت أعلم بأن الرحلة
ستكون شاقة وطويلة، حتى لو لم تكن الشمس عامودية على
رأسي بعد.

كانت حقيبتني ثقيلة بشكل لا يحتمل فرميتها على حصي الصحراء
لأمشي بشكل أسرع وأقل إجهاداً. مشيت لأربع أو خمس خطوات
قبل أن تدوس قدمي اليسرى على لغم أرضي. لم ينفجر اللغم
بسرعة فهو من النوع الذي ينفجر عند إزالة الضغط عنه. لا
يكون انفجار هذا النوع قاتلاً دائماً، فأحياناً سيتركك الانفجار
مبتور اليد أو القدم أو أكثر من طرف، وبصحراء كهذه، هذا يعني
الموت أيضاً لكن بطريقة أبطأ وأكثر إيلاماً.

علي أن أركز وأن أبقى الضغط على اللغم. هذا اللغم، من منظور
معين، مثل الشعوب: إن أبقى الحاكم قدمه فوقهم بصرامة لن
يستطيع الشعب التحرك، لكن إن خفف الحاكم من وطأة قدمه

على شعبه سيثورون وينقلبون ضده. وأنا حاكم هذا اللغم،
يجب أن أبقى قدمي عليه بقوة.

لو لم أرم الحقيبة لوضعتها بحذر على اللغم بدل قدمي. لقد
صرخت أُمي علي صباحًا، "يمكن لهذه الكتب أن تنقذك!" لقد
كانت محقة.

الساعة الآن الثانية عشرة وخمسة وأربعون دقيقة. ستنتقل
أجراس المدارس بعد قليل وسيذهب جميع الطلبة إلى منازلهم.

كنت أنوي أن أتصل بعائتي بعدما أبتعد عن الشاطئ لكن
العُبارة بعيدة الآن من دوني آخذه أحلامي بمستقبل أفضل
معه.

قدمي خدرة. لم أعد أشعر بها. بدأ الصباح بحلم بمستقبل أفضل
لكني الآن أحلم بأي مستقبل كان.

يزداد لهيب الشمس حرارة مع كل لحظة وإن أغمي علي الآن
سأموت اليوم حتمًا. وفرص إغمائي ليست مطمئنة فأنا عادة

أصاب بدوار تحت الشمس الحارة وهذا حرمني من العديد من
حصص التربية الرياضية بالمدرسة.

أحب الرياضة. أحب الروح التنافسية التي تدفعك للفوز بكل
مباراة. تشبه الرياضة الحياة إلا أن الحياة ليست لعبة. لا يوجد
خيار "حاول مرة أخرى" بالحياة الواقعية.

لم أمت بسبب صاروخ قادم من فوق رأسي لكنني قد أموت الآن
بسبب لغم من تحت أقدامي. هل سينعونني شهيداً وأنا الذي
حاولت الهروب من هنا؟!

أرى الأمر غريباً أن الحياة والموت هما أكثر الأمور تناقضاً لكنهما
متلازمان! لا يوجد حياة دون موت ولن يكون هناك موت إن لم
يكن هناك حياة بالمرتبة الأولى.

بدأت الشمس بالميلان نحو الغرب لكنها ما زالت حارقة.

سؤال

- في أي سنة حدثت النكبة؟

سأل المعلم طلاب الصف الثامن.

- لا أعلم!

رد طالب.

- ربما.. السنة الماضية!

قال آخر.

- ألا تعرفون؟!

استفسر المعلم متعجباً.

- لم أقرأ المعلومة على الإنترنت.

تحجج طالب ببرود، فأدرك المعلم غلظه بالسؤال؛ فهو قد تأكد

أنه كان من الأدق أن يسأل "متى بدأت النكبة؟"

نجاح

نحن لسنا شُعباً بل شُعباً احترفت النوم واهتوت إلقاء اللوم
فأصبحت التتانة عنواناً لنا، لكن ليس من رائحة البصل أو من
كثرة الثوم، بل بسبب أخلاق ورنائل من هم ليسوا بقوم. أفراد
تستيقظ كل صباح يسعون جاهدين لتحقيق النجاح. وبعد عناء
وكفاح، كان نجاحهم لا يتعدى زوجة للنجاح.

فرس في زمن الحمير

يمتلك حمادة مزرعة دواجن كبيرة وكان يذهب إليها كل صباح – حتى فترة قريبة – على حماره، حقيقة، كان يستيقظ حمادة مبكرًا للذهاب إلى مزرعته كي يلحق بالسوق على هذا الحمار طوال ما يقارب الثلاثة عقود، وكان دومًا يصل إلى المزرعة متأخرًا – هذا إن وصل – بسبب بطئ الحمار وكثرة وقفاته وعثراته، ولكن بالفترة الأخيرة زادت عثرات هذا الحمار كثيرًا وتسبب بسقوط حمادة أكثر من مرة، وبعد كل هذا الوقت، فطن حمادة أنه يمكنه الاستغناء عن "خدمات" هذا الحمار.

فعلًا، حبس حمادة الحمار في زريبة قريبة من المزرعة التي كان يحرسها مجموعة من الكلاب. لكن بعد هذا لم يتوقف نباح الكلاب ونهيق الحمار بجانب المزرعة، رغم أن الكلاب لم تكن تنبح سابقًا، لكن على ما يبدو كان الحمار كالشرارة التي اشعلت فتيل نباح الكلاب.

كان على حمادة أن يجد وسيلة غير الحمار للذهاب إلى المزرعة وهذا ما فعله حقاً، فهو اختار فرساً ليكون وسيلته للذهاب إلى المزرعة ومن ثم السوق. كان الفرس خير مثال على الفرس العربي الأصيل.

أصبح حمادة يذهب لمزرعة الدواجن مبكراً وأصبح يلحق بالسوق كل يوم بفضل سرعة وتحمل فرسه، ورغم أن بعض الكلاب التي تحرس المزرعة قد أفلتت على المزرعة ونهشت الكثير من الصيصان إلا أن حمادة لم يكثر لتجاوزات الكلاب هذه، فهو الآن أصبح يبيع ويشترى على عكس الأيام السابقة. لكن الفرس لم يشارك صاحبه روحه التجاهلية تجاه الكلاب فكان دوماً يصلح بحدة الزئير على هذه الكلاب لجعلها تبتعد عن الدواجن، وكان يصلح أيضاً على الحمار الذي لا يفعل شيئاً سوى النهيق وهذا لم يعجب حمادة، ليس نهيق الحمار أو نباح وتعديات الكلاب بل صهيل الفرس.

ازدادت تعديات حراس المزرعة على المزرعة كل يوم فلم يكن بوسع الفرس سوى أن يركض نحو الكلاب لإبعادهم عن باقي

صيصان المزرعة، لكن خلال ركضة الإنقاذ هذه كان حمادة قد سقط عن ظهر الفرس، ليس لأن الفرس غدر بصاحبه بل لأن حمادة لم يكن فارسًا أهلاً لهذا الفرس فحمادة اعتاد على حماره القديم المتهالك. وبالفعل، عاد حمادة لحماره القديم بعد أقل من عام على وجود الفرس تحت خدمة وطاعة حمادة.

خلال اليوم الأول لحمادة مع حماره القديم الجديد، وصل إلى المزرعة متأخرًا جدًا ولم يكن هناك مجال للحاق بالسوق، لكن هذه لم تكن المشكلة الأكبر بل كانت المشكلة بأن الكلاب كانت قد قضت على مزرعة الدواجن كلها ووقتها فقط عاتب حمادة نفسه معترفًا "ما أغباني!! كان يجب علي أن أفعل هذا منذ زمن طويل. كان علي أن أسمم الدواجن فتموت الكلاب، وبعدها.. سأجلب دواجن جديدة.. وكلابًا جديدة أيضًا."

سوء تفاهم

في يوم من الأيام كنت عند أحد معارفي فإذ بهاتفه النقال يرن ليرد عليه بصوت رفيع ومهذب جداً، وقد كنت قادراً على معرفة أن المتحدث مع الشاب كان فتاة؛ فالصوت كان مسموعاً بالنسبة لي. عندما سمعت صوت الفتاة نظرت سريعاً إلى يد الشاب لأرى خاتم خطبة في اصبعه. بعدما انتهى الشاب من حديثه على الهاتف باشرت حديثي:

- من الجيد أن لك خطيبة تتحدث معها..

وحتى قبل أن أبارك له رن هاتفه مرة أخرى ليرد بالصوت المهذب ذاته.. مع فتاة أيضاً، وبعد دقائق عدة من الحديث أنهى الشاب الاتصال فقلت له:

- مبارك الخطوبة.. ويبدو أن خطيبتك تحبك جداً؛ فهي لا

تنفك تتصل بك!

- ما الذي يدفعك لقول هذا؟!

سأل متعجباً قبل أن يكمل:

- هذه أول مرة تتصل بي اليوم!

فسألته وأمرني كله حيرة:

- لكن من الذي اتصل بك قبل قليل؟!

ظهرت ملامح التعجب على وجه الشاب قبل أن يقول لي:

- ما أمرك؟! ألم تقل لي أنني محظوظ لوجود حبيبة أتكلم

معه؟!

- لقد قلت لك "خطيبة"

صححت كلام الشاب.

- أووه.. لقد سمعتها " حبيبة "

لم أرد عليه لكنني أدركت بأنه بحاجة إلى فحص سمع عاجل.

طباشير

انتهيت من كتابة حل آخر مسألة على اللوح مع انطلاق جرس الحصة السابعة والأخيرة. نفخت على يدي لأزيل ما أقدر من أثر الطباشير عنها وحملت حقيبتى على كتفى وخرجت. احتجّ الطلبة على حاجتهم للبقاء لوقت أطول في الصف لكتابة حل المسألة ورافقتى صوت تذرهم إلى الرواق. اجتمع صراخ من بقو بالصف مع صراخ من انتهى من دوامه من الطلبة وكان وراء كل صراخ سبب يختلف عن الآخر لكنهما معًا شكلا لغطًا لم أستطع حله.

سجلت ساعة خروجي وتوجهت إلى منزلي الذي لا يبعد أكثر من مئتي مترو حاجز عسكري عن المدرسة. كان قد تعرض الحاجز إلى هجوم صغير من الطلبة الذين رمو حجارة على مشارفه وذلك أمر ليس بالغريب.

كان معظم من في طابور الحاجز العسكري من الطلبة، طلبتي.
وعندما كان يسألهم الجندي عن بطاقة الهوية كانوا يجيبونه
بـ"كتان" (صغير) فيشير لهم بيده بأنه يمكنهم العبور إلى الجهة
الأخرى إلا من يشتبه بتورطهم برمي الحجارة. يتفقد ملامحهم
ويتفرض أيديهم بحثاً عن آثار حجارة.

لم يكن أي طالب قد صلب عندما جاء دوري للمسائلة قبل العبور
من خلال الحاجز. وقفت مقابل الجندي ولا يفصلنا سوى حجر
كبير مكعب الشكل.

- خَوِيَّة!

أمر الجندي.

أخرجت بطاقة الهوية من الجيب القابع على مؤخرتي وأريته
اياها. نظر الجندي إلى صورتني في الهوية ونظر إلي أكثر من
مرة بنظرات ملأها الشك.

- افتح إيديك!

أمرني مرة أخرى.

فتحت يدي له فرأى خيوط يدي اليمنى بيضاء بسبب الطباشير
إلا أنه ظنها آثار حجارة.

- وكف مخلص!!

صرخ بي.

- بتلاتخ خجار؟!!

سألني مستنكرًا ذلك الفعل.

- طباشير! أنا أستاذ في المدرسة القريبة.

أجبت به برود.

نظر الجندي إلى حقيقتي فاقتنع بكلامي ثم أشار بيده إلى الباب
المعدني الدوار الفاصل بين الحاجز والجهة الأخرى.

حينها، شعرت بأقصى سعادة يمكن أن أشعر بها. وبالوقت
نفسه، شعرت بتعاسة لم يبد أن لها مفرجًا. لم يطغ شعور على
آخر لكن الاثنان كانا موجودين باللحظة ذاتها. الجسم الذي لا
يمكن إيقافه والجسم الذي لا يمكن تحريكه تحولاً إلى مشاعر

داخلي. فرحة لأن الجندي لم يدرك أن طبشورة واحدة أخطر من
ألف حجر، وعزاء لأننا أيضًا لم ندرك تلك الحقيقة.

كنز

لم يكن هناك شيء لفعله بالنسبة لمحمد. كان جالساً على أريكة مقابل التلفاز يقلب القنوات بواسطة جهاز التحكم عن بعد لكن لم يعجبه أي من البرامج التي كانت معروضة. كانت زوجته عند أمها مع الأبناء إلا الولد البكر. فلم يكن هناك أحد ليعد الطعام له. تحسس محمد جيوبه فلم يجد شيئاً، فأدخل يده ليتأكد لكنه لم يجد شيئاً كذلك فتأفف حسرة.

بقيت عيناه على التلفاز لكنهما لم تكن متابعتين لما داخل الشاشة. وفي لحظة وحي سمائي، ارتفع نظر محمد سانتيمترات قليلة فوق خزانة التلفاز فوجد كتاباً. لقد كان القرآن الكريم فابتسم محمد ونظر إلى السماء بامتنان.

قام محمد نحو الخزانة ورفع يده نحو المصحف وحمله. كان المصحف مغطى بالغبار بشكل كامل، فتحسس محمد الغلاف ليزيل بعض الغبار عنه قبل أن يزيل ما تبقى من الغبار بنفخة

هواء لطيفة. عاد غلاف القرآن نظيفاً ففتحه محمد من المنتصف
ليخرج ورقة نقدية كان قد نسي أن زوجته تضع المال هناك
أحياناً. أغلق محمد المصحف وأعادَه إلى مكانه بينما كان يصرخ
على ابنه، "يا ولدا! تعال لتذهب إلى البقالة لتشتري لي علبة
سجائر!!"

قصة قصيرة ذاتية لطفل أفريقي

ماضي المستقبل

لم يكن ذلك اليوم مثل باقي الأيام بالنسبة لأحد الشبان فهو لم يكن يوماً مليئاً بالفراغ. بداية ذلك اليوم كانت مثل كل يوم، فهو بكل صباح ينتظر الحافلة التي تقله إلى مكان عمله. لم تكن الحافلة مخصصة لعمله لكنه أحب الذهاب إليه بتلك الحافلة لعشقه حكايات السائق كبير السن. دائماً ما يجلس الشاب على الكرسي الأقرب للباب والأنسب لسماع حكايات السائق. في ذلك اليوم اختلف أمر ما فعندما فتح السائق الباب له صعد مبتسماً كعادته. لكن المختلف كان وجود كهل نائم على الكرسي. كهل بدا كأنه يحلم بماض لم يكتب له. نظر الشاب إلى السائق واحتج. هز السائق كتفيه ثم انطلق بالحافلة.

بحث الشاب عن كرسي شاغر بينما كانت الحافلة تسير. استعان الشاب بالقضبان ومساند الكراسي ليحافظ على توازنه. كان طريقه طويل فعلى كل كرسي تقريباً كان هناك شخص يتبادل معه السلام والسؤال عن الأحوال. كان محبوباً منذ مجيئه إلى

المدينة بعد خروجه من الأسر. هي ليست مدينته بالمولد ولا
بالنشأة لكنه لم يفقد العطف بها.

كان الكرسي ما قبل الأخير على يمينه شاغراً فأراد أن يجلس
هناك دون النظر إلى يساره. لكن على الكرسي ما قبل الأخير
على يساره كانت تجلس فتاة وبجانبتها امرأة تحمل رضيعها بين
يديها. كانت يدا الفتاة متشبثة بقوة حول ثلاثة كتب جامعية.
تقياً الرضيع على الفتاة وبردة فعل قامت عن كرسيها بينما كان
الشاب يهم بالقعود على الكرسي الذي على يمينه ولكن مع
وقوف الفتاة المسرع ارتطم بها. هو أسير محرر لكن لا شيء
أسره بشدة أكبر مما أسرته عيناها. كانت الشمس متئكة على
الأفق أول طلوعها وكانت قادمة من خلف الفتاة فتحدد إطار
وجهها بخيط ذهبي وكانت عيناها في منتصف اللوحة.

جلست الفتاة وجلس هو لكن قلوبهما بقيا على رقصهما. كانت
تدرس الكيمياء وشاهد كتبها. كانت الكيمياء من هواياته التي
أبدع بها لكنه لم يخبرها بذلك. كان يود الاعتذار منها لأنه
اصطدم بها لكنه لم يفعل ذلك أيضاً. أما هي، فمثلت بأنها

تلاعب الطفل وأبعدت ناظريها عنه لكنها لم تستطع إبعاد تفكيرها. كان هناك القليل من القياء عند قدمي الفتاة ولم يكن معها ومع أم الرضيع محارم ورقية كافية لتنظيفه لكن كان معه الكثير لكنه لم يساعدهما، هو حتى لو يعرض المساعدة على الأقل.

وصلت الحافلة جامعة الفتاة أبكر بكثير من وقت أول محاضرة فقامت ونظرها على كتبها. لم يلتفت الشاب نحو الفتاة أول قيامها لكنه نظر إليها عند نزولها درجات الحافلة ليُفتح لها الباب وخرجت وأُقفل بعدها الباب مصدراً صوتاً عالياً ليستيقظ الشاب. كان على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه، أقرب كرسي إلى الباب. وقبل أن يفتح السائق كبير السن الباب، لاحظ الشاب من خلال نوافذ الباب ثلاثة كتب كيمياء مع الراكب الذي كان على وشك الصعود إلى الحافلة. فتح الباب وصعد الراكب ورافقه نور جاء معه من الخارج.

مفتاح وباب

عندما غادر جدّي بيته القديم قبل ٤٨ سنة أخذ معه مفتاح البيت. وبعد حياة طويلة خارج البيت، عاد جدي ومعه المفتاح. حاول فتح بيته القديم بالمفتاح الذي أخذه قبل ٤٨ سنة لكن الباب لم يفتح. حاول مرارًا دون فائدة، لكنه أوقف المحاولة عندما رأى أن الباب قد تغير.

يد بيد

كانت الرايات الخضراء والصفراء والحمراء والسوداء من حولي . كانت مظاهرة كبيرة ضد الاحتلال فخرج الآلاف من المساجد بعد صلاة الجمعة للتظاهر وكنت أنا في الصفوف الأولى، وكان من حولي الكثير من الأسماء المؤثرة في مختلف الفصائل الوطنية. لم نتوقف عن الهتاف فكادت تخرج تفاحة آدم من مكانها.

بدأت المظاهرة سلمية لكن الحال تغير عندما توقفت بضع مركبات عسكرية للعدو أمامنا، وجاءت شاحنة كبيرة محملة بالمياه العادمة فبدأت بضخها علينا، فبدأنا بدورنا بضرب الحجارة على تلك المركبات المحصنة جيداً. شارك الكثير من الشبان والأشخاص الذين أعرفهم في ضرب الحجارة التي تساقطت أمام المركبات المدرعة كتساقط الذباب أمام قوة المييد الحشري.

أخرج جندي سلاحه لإطلاق الكريات المعدنية المغلفة بالمطاط،
فبدأت الصفوف الأولى بالهروب نحو الخلف فتعرقل الكثير منهم.
وأنا أيضاً تعرقلت كذلك فوقعت على الأرض. كان وجهي نحو
الأسفلت وظهري إلى السماء. أمسكتني يد من عضدي بقوة
ورفعتني عن الأرض فإذ به جندي ومعه جندي آخر. ضرباني
الجنديان على وجهي وعلى معدتي أكثر من مرة بأكعاب
أسلحتهم. لم يتوقفا عن ضربي، بقيا يركلاني ويلكمانني أثناء
جرهما لي نحو جيب عسكري.

احتجت لثوان قبل أن تتضح الرؤية لحد سمح لي برؤية من كان
بالجيب. لقد كان الضابط المسؤول الذي بدأ الكلام:

- أنت تعلم أن هناك قراراً صدر بحق من يرمون الحجارة

علينا.. خمسة وثلاثون سنة بالسجن، أليس كذلك؟

- أعلم ذلك!

- ولم أنت هنا الآن؟

اكتفيت بهز أكتافي.

- أعتقد بأنك تعرف إن حاكمناهم ولم نحاكمك، سيشك الجميع بك، وأنت لا تريد ذلك، ولكن باليد الأخرى، سيُظهر عدم محاكمة الآخرين حكومتنا بمظهر البلهاء، ونحن لا نريد ذلك، أليس كذلك؟

سألني الضابط المسؤول.

لم يكن هناك إجابة تصب بمصلحتي.

عاصمة أبدية

عندما أقول أنني أحب هواء بلدي فأنا لا أقصد رائحة قنابل الغاز المسيل للدموع، لكنني مجبر على استنشاقه في كثير من الأيام؛ فهو أصبح جزءاً لا يتجزأ من سمائنا. وهناك على الأرض، كانت الإطارات المشتعلة التي كانت تطرز في الهواء ثوباً مصنوعاً من خيوط سوداء سميقة.

كدت أختنق عندما كنت موجوداً في موقع الاشتباكات بين بعض الشبان والجيش. رغم سنواتي الستين، هرولت مبتعداً وأنا أكمم أنفي وفمي بواسطة يدي قبل أن ألمح اللون الأصفر لسيارة عمومية. ركبت في المقعد الخلفي دون أن أسأل أين يتجه؛ فهدفي كان الابتعاد عن منطقة المواجهات وليس الذهاب إلى مكان معين.

- كيف الوضع يا حاج؟!

سألني سائق السيارة لكنني لم أستطع إجابته لعدم وجود
أكسجين في رتتي فوجّه السؤال إلى الراكب الذي كان جالساً في
المقعد المجاور له.

- هؤلاء الشبان! لعنهم الله!!

رد الراكب غاضباً.

- خير؟!

سأل السائق مجدداً.

- إنهم السبب في توقف عملنا! أنت محظوظ جداً!

- لماذا أنا محظوظ؟!

- لأنك تسوق هذه السيارة.. يمكنك الابتعاد عن مناطق

المواجهات متى أردت!

- ربما!

- هل العمل جيد في هذه الأوقات؟!

- نوعاً ما!

- هل هو أفضل من السنة الفائتة؟

- لا أعلم.. كنت أعمل في إسرائيل السنة الماضية
- حقاً؟! أين في إسرائيل؟
- القدس

استقلال

لقد حققنا المحال وأعلننا الاستقلال بعد دحرنا للاحتلال ليصبح
هذا موضوع كل نشيد وكل موال؛ فما بعد النكبة والقهر لا يأتي
إلا الفرج والنصر. هذه هي الحقيقة وليست من نسج الخيال،
ولهذا السبب خصصنا يوماً كاملاً نحتفل فيه بتحررنا، وذلك
اليوم هو الثلاثون من شباط من كل عام.

تساؤل

هل تذوق الدمع هي أفضل طريقة لمعرفة إن كانت الدموع دموع
حزن أم فرح؟ سيكون سيئاً إن كانت كذلك؛ فأنا لا أستطيع
تذوق أي شيء.. حرفياً. وإن كنت أريد معرفة ما سبب نزول
الدموع بطريقة أخرى سيجب علي التهاور لمعرفة ذلك، وأنا
لست من النوع المتكلم أيضاً.. حرفياً. من الغريب جداً احتياجك
لأي أمر عندما تفتقده.. فما بالك باحتياجك بشخص؟!

لنعد إلى الموضوع الأساسي: هل هي دموع حزن أم فرح؟ كان
بودي أن أمسك مؤخراً رأسها وهي تبكي لأقربه من لساني وألحق
الدمع كي أجد الإجابة. لكن كما سبق وقلت، أنا لا أستطيع
تذوق شيء، ولأزيد الطين بلة، لا أستطيع الإمساك بشيء
لملموس أيضاً. ومحاولة أن أكون فطناً أو حساساً لمعرفة ما
تشعر هي به ليس خياراً، فأنا ليس هي. بل أنا هو وهي هي،
وحسب نظرتي لا يمكن لهو أن يشعر كما تشعر هي، هذا إن كان

يشعر.. أو شعر في وقت ما. ولا أتكلم هنا عن شعوره
للملحوسات. أوه.. أتكلم! أنا أتكلم.. لكن مع نفسي. على الأقل
أنا أستمع لنفسي!

تَبَّأ!! لنعد إلى الموضوع الأساسي! لكن! ماذا لو كانت دموع
فرح؟ هل سأفرح لأنها فرحة ومسرورة.. جداً! فلا أحد يبكي
فرحاً بسبب شيء بسيط! هل سأفرح حقاً لأنها مسرورة.. ربما
بسبب بعدي عنها؟! لكن ماذا لو كانت حقاً متألمة وتبكي وجعاً
وحرقة؟ هل سأسرّ لأنها تفتقدني وأني كنت يوماً ما ذا أهمية؟
أم أنني سأحزن لحزنها؟ هذا إن كانت حزينة، فأنا حقاً لا أعلم
إن كانت تبكي فرحاً أم حزناً.

هل ألاحقها لأعرف؟ ألم تعد محرمة علي؟ ألم يفرقنا الموت؟
أحدنا على الأقل! لم كل هذه الأسئلة؟ ولم أسأل نفسي متوقعاً
إجابة منها؟! أليست المعرفة هي التي تجيب؟ هل يمكن أن أتعلم
أكثر؟ الآن! ألم يفت الأوان للتعلم؟!

تَبَّأ! تَبَّأ! لم أفقد تركيزي بسرعة؟! السؤال الأساسي: لم تبكي؟
كلا.. كلا! ليس هذا السؤال! لكن، لو علمت لما تبكي لربما عرفت

إن كانت دموعها دموع فرح أم حزن! لكن، ما الذي يضمن لي
بأنني لو أجبت على هذا السؤال لن أصرّ على إجابة الأسئلة
الأخرى؟

إنها تعود إلى المطبخ الآن! ربما سأجد الإجابة... يا للعنة! ماذا لو
كانت تقطع البصل؟ ماذا سأفعل؟ اه... سؤال ملعون آخر! من
أين تأتي هذه الأسئلة؟ هل ستنتهي؟! أعتقد ذلك، لكن كيف؟

اه... لنعد إلى السؤال الأساسي! لكن لماذا أستخدم صيغة
الجمع؟ أنا أنكلم مع نفسي! هل نفسي هي شخصيات متعددة؟
أكانت كل شخصية مرتبطة بزمان معين ومحدد؟ وربما بمكان
وأشخاص؟ لكن... هل دموعها دموع حزن أم فرح؟ أم هل تقطع
البصل؟ كلا... أنا لن أدخل ذلك المطبخ؛ فلو دخلت سأعد... أنا
لا أريد! لا أريد!! لكن هل أحتاج؟! هل المعرفة حاجة؟ ربما
سيقتلني ذلك! لا، لا... لكن... ربما، ربما تقتلني بالفعل! هل حصل
ذلك؟ ماذا حصل؟! كيف جئت إلى هنا؟! كيف شكلي؟! مذهري؟!
هل ذلك أنا؟ الذي هناك... على السرير! هل هو أحد شخصياتي؟
كلا، ها هي تخرج من المطبخ. هي تجلب له البصل! هناك بصل

على صينية الفطور! أنا لم أحب البصل! هل يتكلم؟ هل تبتسم؟!
هل.. هل أنا في المنزل الصحيح؟! نعم، أنا كذلك; فأنا عرفت
أين المطبخ! لكن لم سألت نفسي إن كنت متأكدًا؟! هل مانت
الذكريات أيضًا؟ بالنسبة لي.. أم لها؟! أم الاثنين معًا؟ لست
متأكدًا من شيء! بلى، متأكد من أمرين: الأول، أنني لست متأكدًا
من الكثير من الأمور، والثاني، أنا لا أحب البصل.. لا.. لا أحبه
إطلاقًا.. حقيقة، لطالما كرهته!

عنقاء

كنت لاعب جناح عندما بدأت لعب كرة القدم لكن مدرب فريق الناشئين نقلني للعب بالوسط الهجومي بسبب قناعته بأن لدي رؤية واسعة لما يدور على أرضية الملعب، ومن الغباء، كما قال لي المدرب، أن تضيع موهبتي تلك بوضعي على الجناح؛ فهناك لا أوزع الكرات إلا إلى جهة واحدة ونظري لا يحتاج أن يكون دائرياً كلاعب الوسط. وبما أنني أمتلك القدرة على رؤية الملعب كاملاً، فمن الأفضل أن ألعّب في وسطه لا على طرفه.

- أتعلم؟ قياس البلاطة هو ٣٠ سم X ٣٠ سم، ولو وضعنا ست بلاطات.. ثلاث بالطول واثنين بالعرض.. ستصبح مساحة الشكل ٦٠ سم X ٩٠ سم.. ولو فرضنا أن كل سم واحد هو فعلاً متر.. ستصبح هذه البلاطات ٦٠ متراً X ٩٠.. قياس دولي للمعب كرة قدم..

هكذا بدأ تامر حديثه في أحد الأيام بينما كان ينظر إلى بلاط إحدى غرف المستشفى التي كنا نتعالج بها من السرطان.

- وكم سيكون حجمنا لو لعبنا على هذه البلاطات؟

سألته.

- كالنمل ربما..

- وهل يستطيع النمل لعب كرة القدم؟!

سألته مداعباً.

- لا تستخف بصغار الحجم.. فنحن مقعدون هنا بسبب

خلايا صغيرة جداً..

كان تامر أحد المرضى في المستشفى الذي تعالجت به وكان مولعاً بكرة القدم، ولكوني لاعباً وجد أن أفضل طريقة ليقضي وقته هي بالحديث معي، عن كرة القدم بالطبع.

طوال الفترة التي بقينا فيها بالمستشفى معًا كان يرتدي قميصًا رياضيًا لأحد فرق كرة القدم ويضع شارة قيادة على عضده الأيسر بشكل مقلوب، حيث كانت كلمة "قائد" إلى الداخل. لم يشرح تامر لي سبب لبسه للشارة معكوسة إلا قبل وفاته بدقائق.

نعم. سيخسر تامر معركته أمام السرطان.

- جووووول!!

صرخ تامر بينما كنا تحت العلاج الكيميائي.

- هل تتخيل بأنك سجلت هدفًا؟

سألته.

- كلا.. ليس تخيلًا.. فهذا الهدف ليس تخيلًا.. هو ليس

بكرة القدم من الأصل..

لم أتكلم منتظرًا منه تفسيرًا. أكمل تامر:

- أخبرني الطبيب يحيى بأن حالتي تتحسن.. وهذا هدف بمرمى المرض..
- ولكن هل تحاربه لوحده؟ هل أنت الفريق بأكمله؟
- سيكون من الجميل أن يكون لدي رفيق يساعدني.. يحارب معي..

قال ذلك بينما كان ينظر إلي وظل ابتسامة يعلو وجهه.

أكمل كلامه ويده تشير إلى مكان ما في الهواء:

- هناك.. لوحة النتائج.. أرى النتيجة تتقلص بيننا..
- ولكني لا أفرح طويلاً.. لا يجب أن أضيع أي لحظة..
- تامر.. هل لعبت مباراة كرة قدم تنافسية؟

سألته وأنا موقن من الإجابة. شعرت بذنب لسؤالي لكن كان يجب أن أتأكد.

- أنت تؤلمني أكثر من هذا..

قال لي وهو يشير إلى الغرفة حيث كنا نتعالج. أأكمل قائلاً:

- لا.. ليس حقاً.. ليس على ملعب أخضر وأمام مدرجات مليئة بالجماهير.. مثلما كنت تفعل أنت..

أردت أن أخفف عنه فقاطعته:

- لقد لعبت بفريق الناشئين حيث لا يحضر أحد إلى المباريات..

- لكن أن تفعل.. بنهاية اليوم ما يهم هو أنت.. ومدى رضاك عن نفسك.. أنت اللاعب والمشجع..

- ولم ذكرت المدرجات المليئة بالجمهور؟

لم يجب تامر. أعدت سؤالي مرة أخرى ليجيب:

- الصوت.. الهزيج.. تيتو.. تيتو.. تيتووو... وعلمي أنني نجحت بإلهام أحدهم.. بأنه يمكن تحقيق الانتصار.. تيتو.. تيتو...

ظل يردد بصوت خافت وهو يلوح بيده كمشجع قبل أن يفتح يداه عالياً محتفلاً كلاعب سجل هدف الفوز لفريقه.

- تيتو؟

سألته.

- هكذا ينادونني .. كانوا ..

- هذه المرة الأولى التي أعرف ذلك .. وأنا أعرفك منذ
شهور!

- نعم .. فهم توقفوا عن مناداتي بذلك اللقب ..

- بسبب .. المدرب .. تيتو؟

- نعم .. لكن كيف كان شعوره عند صعوده إلى الملعب أمام
مئة ألف ينادون اسمه .. محاطًا بأفضل لاعبي العالم ..

الجميع يناديه .. ويحييه .. كيف كان شعوره؟

- أعتقد بأنه رأى لوحة النتائج منحنية احترامًا له ..

- أنا أغبطك على ذلك!

قال تامر بعد فترة قصيرة.

- أنا؟ على ماذا؟!

- لأن لديك فرصة ..

- عم تتكلم؟! ستخرج أنت أيضاً من هنا.. معافى!

- هل سأخرج موهوباً بكرة القدم؟

لم أجبه على الفور. قلت له بعد ثوان:

- كرة القدم ليست حول رفع الكأس فقط.. هي تتعلق برفع

الرأس أكثر من رفع الكأس! عوضاً عن أنه يمكنك فعل

أمور أخرى.. متعلقة بكرة القدم.. ربما التدريب.. فأنت

تملك عقلية تدريبية جيدة ولك نظرة باللاعبين! أمامك

كل الوقت لتفكر بهذا.. على كل، كم عمرك؟!

لم يجبني لكني علمت بأن عيد ميلاده كان قريباً وهدية عيد

ميلاده كانت برأسي، لكن كان يجب على الطبيب المشرف أن

يوافق عليها.

ذهبت إلى المشرف الطبي وسألته عن إمكانية أخذ تامر للعب

مباراة كرة قدم في ملعب معشب. نظر الطبيب إلي نظرة فهمت

مغزاها: لم يعد هناك متسع من الوقت لتامر. قال الطبيب

بعدها:

- نحن نملك مساحات واسعة للعب في المستشفى لهذا السبب..
- قد يكون هذا عيد ميلاده الأخير!
- نحن نعمل جاهدين كي لا يكون كذلك!
- أخبرني.. هل يستطيع؟
- يعمل الطاقم الطبي بكل ما أوتي من جهد لتقديم الأفضل للمرضى.. كما قدمناه لك.. فأنت ستخرج قريباً جداً..
- لا أتكلم عن العلاج.. فنظرتك كانت واضحة.. لكنني أتكلم عن المباراة.. الملعب..
- يجب أن أتكلم مع والديه أولاً..

تكلم الطبيب مع والدي تامر ولم يمانعا أمنية ابنهم التي كانا يعرفان أنها قد تكون أمنيته الأخيرة. تامر كذلك أدرك أن حالته لن تتحسن عندما رأى معظم من يتعالج أو يعمل في المستشفى في الملعب، إما لاعباً أو على المدرجات. لقد كان يعلم بأن تلك

المباراة وهدية عيد ميلاده هي تحضيراً لجنازته. لقد كان المعزون موجودون وكذلك المتوفى، لكن كان لديه فرصة أخيرة لمباراة أخيرة.

أصر تامر أن ألعب بفريقه وأن أكون قائداً له. قبلت طلبه الأول ورفضت الثاني. حملت شارة القيادة وألبسته إياها على عضده الأيسر بشكل مقلوب..

- ستفسر لي سبب لبسك للشارة بالمقلوب، أليس كذلك؟
- نعم.. حينما أكون على فراش الموت..
- لا يمكنني الانتظار كل هذا الوقت!

قلت متظاهراً الغضب.

ابتسم تامر وربت على كتفي وقال ساخراً:

- أتمنى أن يكون لعبك أفضل من تمثيلك!
- وأتمنى أن يكون لعبك مثل كلامك!
- هل كلامي جيد؟!

- لا أعلم.. لكنه سريع..
- ولهذا سألعب على الجناح..
- ألا تريد اللعب في المنتصف؟
- لا.. من الأسهل لي أن أَلعب على الجناح.. فأنا لا
استطيع رؤية الملعب كاملاً ولعبي على الجناح سيجعل
موضوع الرؤية أسهل بالنسبة لي.. فهناك لا يجب على
سوى تغطية نصف المساحة التي سأغطيها لو لعبت
بالمنتصف..

انطلقت مني ضحكة قبل أن أكتمها. لقد كان يتكلم تامر تمامًا
كمدرّب فريق الناشئين.

بدأت المباراة سريعة من جانب فريقنا وقد ساهم تامر بصناعة
العديد من الفرص دون أن نستغلها بشكل جيد. كنت بمركز
الدفاع أرى كرات تامر العرضية تمر نحو منطقة الفريق الآخر
غير أن مهاجمنا الطبيب يحيى لم يستطع تسجيل أي هدف لعدم

تمكنه من أن يفلت من رقابة المدافعين. كان لتامر رأي في ذلك خلال استراحة ما بين الشوطين:

- دكتور يحيى .. يجب أن تفلت من الدفاع أولاً ثم تنتظر الكرة .. لا أن تنتظر وصول الكرة لك ومحاولة مراوغة الدفاع ..

حاول الطبيب يحيى فعل ذلك مع بداية الشوط الثاني ونجح فعلاً بأن يفلت من رقابة الدفاع واستطاع الانفراد بحارس مرمى الفريق المنافس أكثر من مرة لكن دون تسجيل أي هدف; فكراته كانت عشوائية.

- أن تفلت من الدفاع أمر جيد يا دكتور ..

قال تامر للطبيب يحيى الذي شكر تامر:

- شكراً ..

- لكن هذا مجرد وسيلة لتسجيل الأهداف، إنها ليست الغاية.. فلكي نفوز يجب أن نسجل الأهداف، لا أن نفلت من الدفاع فقط..

اتفقنا بعدها على أن ألعب أنا في المقدمة ولم تمر دقيقتين حتى سجلت الهدف الوحيد إثر كرة عرضية من تامر. لقد استلم تامر الكرة وهو على خط التماس الأيمن وركض سريعاً ومتجاوزاً الظهير الدفاعي قبل أن يرفع كرة عرضية هبطت تماماً على رأسي الأصلع لأضعها قوية على يسار الحارس. احتفل فريقنا بالهدف واحتفل الجميع بعيد ميلاد تامر.

كانت ليلتها آخر مرة أجتمع فيها مع تامر وهو بحالة تسمح له بالحديث والحركة. في اليوم التالي غادرت المستشفى.. معافى. لا يمكن إنكار الفرحة التي شعرت بها إلا أنه لم يكن ممكناً إخفاء الخيبة التي أحسست بها لمعرفتي بأن الكثير من الأصدقاء الذين تعرفت عليهم هناك سيخسرون معركتهم ضد المرض.

بدأ شعري بالنمو مجدداً وازداد وزني عدة كيلوغرامات خلال أقل
من شهر منذ خروجي من المستشفى. لم أذهب إلى المشفى إلا
بعدما تلقيت اتصالاً من الطبيب يحيى:

- مرحباً.. أنا الدكتور يحيى..

- مرحباً..

- إنه تامر.. إنه يرغب برؤيتك..

أغلقت سماعة الهاتف وتوجهت إلى المشفى لزيارة تامر..
لتوديعه.

وصلت غرفته ولم يكن هناك أي أحد عنده. أخبرتني الممرضة
بأن جميع من كانوا عنده خرجوا قبل وصولي بدقائق.

- أنت أقل بشاعة وأنت لست أصلعاً!

قال تامر مماًزحاً عندما رأيته. كان تامر مرتدياً، كعادته، قميصاً
لأحد الفرق الرياضية، وبالطبع شارة القيادة المقلوبة.

- كيف الحال؟

سألته.

- منصوب..

انتظر تامر ردة فعلي لفترة من الوقت. ردة فعل لم تأتي.

- يبدو أنك سيء بقواعد اللغة العربية! لكن على الأقل أنت

جيد بكرة القدم..

- ربما أنا كذلك..

- أخبرني.. ألم تعد للفريق؟ فأنا أرى أن وزنك ازداد

كثيراً..

- لم أرجع للتدرب.. إنني أحاول الحصول على شهادة

دراسية ما..

- "شهادة دراسية ما!"

قال تامر بسخرية قبل أن يقول:

- أنت لا تعرف ماذا تريد أن تكون!

- يجب أن أحصل على مهنة مبكراً.. ويجب أن أحصل على شهادة دراسية للحصول عليها..
- وكرة القدم؟
- اخترت الدراسة..
- وما المانع أن يكون الكتاب بيد والكرة تحت القدم؟ ألم تخبرني بأنك تحب اللعبة؟
- نعم.. لكن هذا الواقع..
- كلا.. أنت الواقع!
- لكن لا يوجد مدرب سيشرك مصاباً بالسرطان!
- نا.. من السرطان!
- نعم.. نجوت بحمد الله.. وحققت الهدف من العلاج..
- كلا.. الخروج من هنا مثل الانفلات من رقابة خط الدفاع، لكن أن تكون أنت.. هذا هو تسجيل الهدف.. وأنا أراك لاعباً وقائداً..

حديثه عن كوني قائداً ذكرني بأمر شارة القيادة المقلوبة لكنني لم أرد أن أسأله عن سبب ارتدائه لها بذلك الشكل؛ فهو أخبرني

بأنه سيكشف السر قبل وفاته وسيكون من الغباء أن أذكره بأن حالته تدهورت. لم يكن تامر جاهلاً بتلك الحقيقة فسألني:

- أتريد أن تعرف عن الشارة؟

هزرت رأسي موافقاً.

- أحب ارتداؤها مقلوبة.. كلمة "قائد" إلى الداخل.. لأنه لا فائدة من رؤية الناس بأنك قائد إن لم تر أنت ذلك.. إن لم تؤمن أنت بأنك قائد.. يبدأ الإيمان من الداخل.. منك أنت.. ثم ينتقل إلى الخارج.. الزملاء.. والمتفرجين.. لهذا يا صديقي.. أرنديها مقلوبة.. حتى أؤمن..

صمت تامر لثوان قبل أن يكمل:

- أنا مؤمن.. لكن هل أنت كذلك؟

خلع تامر بعد سؤاله شارة القيادة وألبسني اياها.. مقلوبة.

ارتديتها على الشاكلة نفسها بعد ثلاثة أسابيع من وفاة تامر.
كانت ثاني مباراة أَلعبها بعد عودتي للفريق. انتهى الشوط الأول من المباراة بتخلف فريقنا بهدفين للا شيء. وما زاد الأمر صعوبة هو خروج قائد فريقنا عندما أصيب قبيل نهاية الشوط الأول ليستبدله المدرب بلاعب آخر. خرج القائد متئكًا على زميل لنا في الفريق. خلع القائد شارة القيادة وألبسني اياها. خلعتها بسرعة فنظر قائد الفريق نظرة ارتياب لثانية قبل أن أعيد ارتداؤها بشكل مقلوب.

انطلق الشوط الثاني. دقيقة ووصلت الكرة إلى لاعب الجناح الأيمن لفريقنا فصعدت إلى منطقة الجزاء انتظر الكرة. تذكرت لحظتها مرور تامر بالكرة على خط التماس وتميرها لي لأسجل هدف الفوز ليلتها. حينها أيضًا تخيلت نفسي لا أزال لاعب جناح ولحظتها رأيت الأمر بوضوح: السبب الرئيسي للعبهم على الجناح هو ليس محدودية رؤيتهم، بل على العكس، إنهم يرون الأمر بشكل شامل، يرون مصلحة الفريق. من هناك تأتي معظم

الفرص التي تنتسب بالأهداف. إنهم الخط الأخير قبل خروج الكرة من الملعب. هم من يبقون الفرصة حية لتسجيل الهدف. من هناك ارتفعت كرة عرضية باتجاهي. نجحت بأن أقلت من رقابة الدفاع، لكن هذا ليس الهدف، سجلت الهدف عندما ارتقيت فوق الدفاع ووضعت الكرة بالمرمى. هناك على اللوحة رأيت النتيجة تتقلص. بين فريقي والفريق المنافس. بين أحلامي والعقبات. عقبة أخرى أزيحت عن الطريق، لكن ليس كلها، ليس بعد.

حملت الكرة بسرعة من داخل المرمى وعدت إلى منتصف الملعب وسط تشجيع الجمهور وتحية زملائي. رأيت لوحة النتائج منحنية لي وبجانبيها تامر يلوح فرحًا بالهدف، لكنه لم يبالغ بالفرحة حيث كان يحثني على المواصلة؛ فقد كان هناك المزيد من العقبات التي يجب إزاحتها.

موت

كان الظلام قد بدأ بالحلول. السماء زرقاء داكنة. والشمس ذهبت لتراتح بسريرها بعد يوم مضى. رغم أنها عملاقة إلا أنها تتعب. الجميع بحاجة إلى الراحة، وأنا من ضمنهم. أريد أن أرتاح من كوني أنا، ومن حقيقة قبوعي هنا. ولكن الأهم من ذلك كان أن أرتاح من ألم أسناني.

بحثت عن المحلول الملحي في كل مكان بالخيمة لكنني لم أجده رغم قلة الأماكن التي يمكن أن يكون بها.

كانت أُمي مستلقية على جانبها الأيمن وظهرها لي. كنت متيقناً أن أخي الصغير كان ملتصقاً بصدرها علّه يجد حليياً يعينه على البقاء.

كنت سأصرخ من ألم أسناني فلم أجد خياراً آخر غير إيقاظ أُمي وسؤالها عن مكان المحلول. اقتربت منها. لم يكن يغطيها شيء سوى فستانها الذي كان أزرقاً في يوم من الأيام. هزرت كتفها

الأيسر مرتين لكنها لم تجب. التففت إلى الجهة المقابلة لأواجهها.
للغربة لم يكن أخي يحاول أن يمتص الحليب من ثدي أمي! كان
بعيداً قليلاً عنها.

كنت قلقاً لعدم استجابة أمي لي فوضعت إبهامي على رسغها
الأيسر واستشعرت النبض الذي كان من المفترض أن يكون
هناك. ذهبت أمي لترتاح.

لهنيهة نسيت ألم أسناني وتحولت أفكارني نحو أخي الصغير.
كيف سأعيّنه؟!

لحق نظري بأفكاري تجاه أخي. كان حول فمه مبتلاً، لكن
السائل لم يكن أبيضاً. لم أتسائل كثيراً عن ماهية السائل عندما
وجدت علبة المحلول الملحي بجانبه. كان يرضع ملحاً، وكان
ميناً.

خرجت من الخيمة وكان الظلام قد حل بالكامل.

حياة

كان أحمد على موعد مع خطيبته التي تعمل ممرضة بمشفى خاص. ذهب أحمد إليها قبل أن تنتهي من فترة عملها فاضطر إلى انتظارها في الكافيتيريا الخاصة بالمشفى.

كانت الكافيتيريا أشبه بمطعم خمس نجوم أو على الأقل، أربع. لم تحو الكافيتيريا سوى على عشر طاولات في صفين متقابلين يبعدان نحو سبعة أمتار عن بعضهما وبينهما نافورة رخامية صغيرة. أحد الصفين كان على جهة باب كبير يفضي إلى خارج المشفى، والصف الآخر كان مطلاً على أحد جدران الكافيتيريا. كان الجدار عبارة عن حوض أسماك كبير. حوالي ثلاثة مترات فصلت بين كل طاولة والأخرى في الصف الواحد وكان هناك كرسيان فقط عند كل طاولة.

جلس أحمد على طاولة تقع على طرف الصف المطل على الجدار وظلّ ينظر إلى الناس من حوله. طار نظره في سماء الكافيتيريا

قبل أن يهبط على رجل وامرأة بدا أنهما متزوجان حديثاً
يجلسان على طاولة تتوسط الصف الآخر من صفّي الطاولات.
رغم المسافة غير القريبة إلا أن أحمد كان قادراً على سماع آثار
لضحكاتها فتساءل في نفسه:

- كيف يضحكان؟ كيف يجروان على الضحك؟ في هذا
الطابق ناس يضحكون وفي الأعلى ناس يحتضرون! هل
سيضحكان لو واجه أحدهما الموت بنفسه؟ لكن بالتأكيد
هما هنا لزيارة مريض.. لا.. لا.. على الأغلب هما هنا
لأن قريباً أو صديقاً لهما رُزق بمولود جديد.. نعم هذا هو
سبب مجيئهما.. ولهذا هما يضحكان.. احتفالاً بالمولود
الجديد..

لم يتوقف دماغ أحمد عن تساؤلاته وتكهناته حول ذلك الزوج إلا
مع وقوف الرجل الذي كان جالساً قبالة المرأة قبل أن يحمل
فاتورة الحساب بيده وذهب. غاب لدقيقة ثم رجع إلى الطاولة..
لم يجلس.. لكن المرأة لم تقم. اقترب الرجل منها وانحنى
نحوها.. قبلة شفافة على جبينها قبل أن يقف خلف كرسيها..

المرأة لم تكن قد قامت بعد ويبدو أنها لن تقوم بعد ذلك اليوم.
حلّ الرجل مكابح كرسي العجلات الذي كانت تجلس المرأة عليه
وبدأ بدفع الكرسي برفق نحو الباب الكبير الذي احتضنهما بنوره
ليختمها عن ناظري أحمد.

كان لا يزال هناك الكثير من الوقت حتّى انتهاء عمل خطيبته.
ظلّ أحمد على كرسيه ذي الأربع أرجل ومنتكاً على الطاولة ولم
يعدل من جلسته إلّا عندما جاءه النادل ليسأله:

- مشروبك سيدي؟

- ممم.. قهوة.. حلوة.. قهوة حلوة

حنى الشاب رأسه قليلاً احتراماً لأحمد ولم تكن الابتسامة
اللطيفة قد غابت عن وجهه قبل أن يغيب هو لمتابعة عمله.

كان عقل أحمد على وشك أن يعمل على تفسير الابتسامة التي
اعتلت وجه النادل لكن وقبل أن يبدأ بتفسير ضحكات
وابتسامات الآخرين، ابتسم هو حين رأى خطيبته واقفة على
الدرجة الثالثة من سلّم الدرج الذي ينزل إلى الكافيتيريا ملتفتة

يميناً وشمالاً باحثة عنه. كانت هي تبحث وكان هو يبتسم لكن
كان عليه البحث بدوره ايضاً، كان عليه البحث عن الأسباب التي
جعلته يبتسم وهو في كافيتيريا المشفى.. ناس يموتون.. لكنه
كان يبتسم من قلبه. هل أصبح غير مكترث بالآخرين؟ غير
مكترث بالوفيات والأمراض؟ وهو قبل ذلك بدقائق اتهم
الأشخاص الذين يضحكون بالمشفى بأنهم لا إنسانيين؟ أم أنه
فقط وجد أن هناك أموراً تقهر المرض وتقتل الموت؟

زيت زيتون

رغم أن سكان القرية جميعهم يمتلكون أشجار زيتون إلا أن زوجي كان يهدي كل ضيف جرة زيت. وعندما كنت أسكب بعض الزيت في جرة سمعت صراخًا جاء من المنازل البعيدة في القرية. ذهبت والجرة بين يدي وكان الصراخ يقترب أكثر، وعندما رأيت الأغراب يقتربون سقطت جرة الزيت وانكسرت.

فريسة

"إنهم كلاب! أولاد كلاب! ينهشون الصيوان بلا رحمة! كل ليلة دون راحة.. يجب أن تقضو عليهم!!"

هكذا كانت أوامر صاحب مزرعة الدواجن التي كنت أنا وشاب آخر نعمل فيها. اقترحت بسرعة استخدام السم لتسميم الكلاب التي تقترب من المزرعة لكن الشاب الآخر كان لديه فكرة أخرى.

لقد كانت المزرعة منعزلة عن مناطق السكان وكبيرة تمتد على طول تسعة دكاكين كبيرة وتحتوي على حوالي عشرة آلاف صوص. ينفق منها حوالي الألفين قبل أن يصبح البقية دجاجاً صالحاً للبيع التجاري. والكثير من هذه الصيوان تُقتل على أيدي الكلاب التي تنهشها بينما أنام أنا والعامل الآخر بعد يوم عمل طويل ومتعب.

- ماذا تقترح أنت؟

سألت الشاب الآخر.

- سترى الليلة! سترى الليلة!

وقبل ذهابنا إلى النوم على سطح المزرعة ليلتها، جلب الشاب عدة صيضان نافقة ووضعها أمام المزرعة بشكل مباشر أسفل حافة السطح فأدركت بسرعة ما كان ينوي فعله.

صعدنا إلى السطح وكان الشاب قد جلب معه عدة حجارة كبيرة وصفّها على الحافة المشرفة على الصيضان النافقة ينتظر الفريسة.

- لا يجب أن تقتلهم هكذا!

قلت للشاب دون أمل بتغيير رأيه.

كما توقعت، لم يقلق الشاب بما قلت وبقي ينتظر فريسته الأولى. تلك الفريسة اقتربت رويداً رويداً من الصيضان وكانت تبطئ أكثر فأكثر كلما اقتربت حتى وصلتها. لم تشرع الكلبة بأكل الصيضان بل حملت أحدهما بين فكيها وقبل أن نرى ماذا كانت ستفعل به رمى الشاب حجراً كبيراً عليها فسقط الصوص من فمها وسقطت هي على الأرض تعوي ألماً. لقد كان عواؤها

الصوت الوحيد المسموع في تلك الأنحاء إلى حين مجيء صاحب
المزرعة بسيارته والذي بدأ بالصراخ "توقفا! توقفا!" فور نزوله
من سيارته. وبدأ الصراخ على الشاب حتى قبل صعوده إلى
السطح الذي كنا نعتليه.

صرخ صاحب المزرعة مجدداً:

- توقف! توقف عن فعل هذا! انتظر حتى أ جلب الكاميرا!

درع

- لقد عدت من الموت يا أبي!
- قلت له بهدوء بعد عودته إلى المنزل.
- كلا، أنت من عاد من الموت.
- لم أجادله بذلك. قال كلمته واقترب مني وربت على كتفي وقال:
- أحسنت!
- الابن سر أبيه!
- توقعت منه الابتسام لكنه بقي بارداً كالثلج، وهو لاحظ أنني رأيت ذلك ليشرح الأمر:
- لا تقلق! لم تؤثر قمة إيفرست بي.. الأمر فقط بأنك نجحت.. على عكسي!

- لكن.. نجاح الابن من نجاح الأب، أليس كذلك؟!

- أَلن تسأل عن فشلي؟

- كلا.. فهو وهم!

لم يردّ والدي علي واتجه رأسًا نحو مكتبه في الطابق العلوي
ولحقت به محاولاً معرفة ما باله، خصوصًا بعد افتراضي بأنه
سيكون سعيداً لتسلقه أعلى قمة في العالم. ودون أن يدير وجهه
نحوي سألني:

- أُنظن بأنني أول من اختبر ابنه في العائلة؟

لم أجبه فهو أتبع سؤاله بالإجابة سريعاً:

- لا.. لا.. فأبي فعل ذلك معي!

- وهل هذا ما تدعوه فشلاً؟! ألم تنجح؟ ألم تحل.. اللغز،

ربما؟!

- هههه.. لا أعلم!

- أنت.. لا تعلم!!

لم أعرف ما كان قصد أبي من قول ذلك؛ فلم أكن أستوعب لحظتها إمكانية معرفة الشخص من نجاحه أم عدمه. كنت أظن بأن النجاح هو النقطة "ب" والشخص يتحرك من النقطة "أ" للوصول إليه، لكن تبين لي بأن الأمر لم يكن كذلك تمامًا.

- ما الأمر؟! هل من مغامرة في الأفق؟

سألته بإلحاح.

ابتسم والدي قبل أن يجيب:

- فعلاً.. لقد عدت من الموت!

مرت لحظات من الصمت قبل أن يكمل كلامه:

- كيف تحمي نفسك؟!

- مم؟

- لا أعلم! لكن.. لو قلت لك أن هناك درعاً ثميناً.. ماذا

سيكون؟

- هل هذا اختبار آخر؟
- قل أنه كذلك..
- ربما علينا أن نجد ما هو..
- وأين هو!

توجه والدي نحو مكتبه الخشي وفتح أحد الجوارير وأخرج ورقة يميل لونها إلى البني المصفر. فابتسمت وقلت متحدياً نفسي:

- لغز قديم.. وصعب!
- لغز لم يستطع والدك حله!
- لكنك قلت أنك لا تعرف إن حللته أم لا!
- وهذا ليس حلاً..
- لكن.. كيف تحمي نفسك؟
- أتسألني السؤال ذاته؟
- أي سؤال؟!

- سؤال أبي لي.. والآن، ابني يسألني السؤال نفسه!

لم أعقب على كلامه. انتظرت قليلاً حتى فتحت الورقة التي أخرجها من الجرار وأعطاني إياها لأقرأ ما كُتِبَ عليها بخط اليد:

كيف نحمي نفسك؟

بالدرع الواقِي. أعلم أنه يبدو كلاماً صبيانياً لكنها الحقيقة.

أبن هو؟

لن أقول لك أبن هو؛ فأنت لا بملكك قوله على الملأ ففبك أمر مخالف لهم.

لقد كانت إجابة السؤال الأول موجودة، الدرع الواقِي. لكن كان علينا إيجاد إجابة السؤال الثاني، "أين هو؟"

- ما رأيك بهذا؟!

سألني والدي بعدما انتهيت من قراءة الورقة.

- فيك أمر مخالف عن الملام .. وجدي .. والدك هو طبيب ..

هذا سهل!

نظرت إلى وجه أبي لأرى علامات الترقب عليه لأكمل

استنتاجي:

- مخالف لـ ملام .. ألم، ووالدك طبيب لديه عيادة .. إلى أين

تذهب عندما تشعر بالألم؟ إلى العيادة!

ابتسم والدي لما قلت فطمأنته:

- أَلغازك أصعب من أَلغاز والدك!

- ألم تكمل قراءة الورقة؟

سألني والدي لأرفعها مجدداً وأكمل الملاحظة تحت السؤالين:

حل هذا ولن نكون مجرد طالب

ابتسمت قليلاً قبل أن أقول لوالدي:

- إنه يتحداك.. كما تحديتني!
- الفرق بأن أحدنا نجح والآخر لم يفعل.
لم أرد أن أبدأ نقاش فشله من عدمه مجدداً فحاولت استشارة
روح المغامرة لديه وأكدت:

- لم تنجح.. إلى الآن!

- إلى عيادة جدك؟!

هزرت رأسي موافقاً وقلبي كله سرور لأنني – للمرة الأولى في
حياتي – كنت قائداً. فما بالك أن أكون قائداً لشخص مثل والدي
المغامر بطبعه؟!

ذهبنا معاً نحو عيادة جدي مشياً على الأقدام. تلك العيادة
المقفلة منذ سنين، فهي لم تُفتح إلا قليلاً بعد وفاة جدي.

وصلنا إلى هناك بعد عدة دقائق فقط. أخرج والدي سلسلة المفاتيح من جيبه، كان مفتاح العيادة الأقدم من بين المفاتيح العديدة في السلسلة.

لم يُصدر الباب صوتاً كما توقعت أن يفعل، بل انفتح بسلاسة كما لو كان الباب حديثاً.

سبقني أبي إلى داخل العيادة ولحقته ويدي على أنفي لتقيني رائحة الهواء الساكن. كانت العيادة فارغة إلا من إعلان توعوي معلق على الجدار المقابل للباب الرئيس. اقتربت من الإعلان وكان خريز ماء يعلو كلما اقتربت أكثر من الجدار.

- إنها عين الماء.. في الحديقة الخلفية!

شرح لي والدي بينما وصلت إلى مسافة تخولني قراءة الإعلان. كان إعلاناً إرشادياً لكيفية الوقاية من إنفلونزا الطيور، وكان معظم ما كتب مهترئاً إلا أنني استطعت قراءة بعض الكلمات بوضوح...

.. سَمَّ بالله واذبح الطير، أو نظفه جيداً مرة أخرى إن اشتريته
مذبوحاً، وقم بغليه بماء على درجة حرارة أعلى من سبعين درجة مئوية...
نظرت إلى والدي وقلت له:

- سبعين.. يجب أن يكون الحرف الأوسط عيناً.. إنها
العين.. بالخارج..

لم يتكلم والدي لنصف دقيقة قبل أن يقول بإيجاز:

- إن حلت مسألة رياضيات بسهولة تامة.. فنسبة أن
تكون إجابتك خاطئة عالية جداً..

لقد لَمَّح والدي إلى سهولة المرحلتين الأوليين وذلك، على عكس
المفترض، لم يكن مطمئناً لي.

فتح والدي الباب الخلفي للعيادة وخرج إلى الحديقة الخلفية
دون أن ألمح شعوره بالفضول والإثارة الذي كان يعتريه بداية
ذلك اليوم.

كانت تنبع العين من بين صخرتين كبيرتين وكان يسير الماء
منحدرًا إلى الأسفل بشكل قوس بطنه باتجاهنا وتحيطه الزهور
البرية من الجانبين ويختفي بين صخور تبعد عن المنبع قرابة
الخمسة أمتار.

لم تكن عين الماء كبيرة جدًا ولم أتبين أين تصب حقًا لكنها كانت
جميلة وباعثة للسكينة في نفسي.. على الأقل قبل أن يعكر قول
والدي صفوها:

- هذا هو!

- الدرع؟

- نعم.. الماء!

- حقًا؟!

- أتعجب غيره؟!

لم يكن هناك شيء غير عين الماء تلك لكنني لم أفهم كيف بإمكان
الماء أن يكون درعًا لنا فاستفسرت من والدي:

- الماء؟! كيف ذلك؟
- والدي طبيب.. وكان ينصح الجميع بشرب الماء.. فإله جعل من الماء كل شيء حي..
- أقلت أنه كان ينصح الجميع بذلك؟!
- أومئ والدي موافقاً. أكملت بعدها:
- إن كان ينصح الجميع بذلك.. لم اللغز؟!
- نظر والدي نحوي قليلاً قبل أن ينظر مجدداً إلى عين الماء ويقول:
- يجب أن نعلم.. أن يكون هناك نتيجة واضحة.. وليست معلقة..
- ألهذا لا تعرف إن نجحت أم لا؟
- أعتقد أن الوصف الأدق لحالتي.. أنني لم أنجز الحل..

نظرت إلى والدي لدقيقة وكانت تلك من المرات القليلة جداً التي أراه فيه عاجزاً. جميع المرات الأخرى كانت متعلقة بوالدتي المتوفية.

لم أود أن يلحظ والدي تحديقي به فنظرت مسرعاً نحو الزهور أمام قدمي. انحنيت والتقطت زهرة صفراء وقربتها من أنفي لأشم عطرها.. لم يكن لديها عطر.

- ليس لها رائحة!

أكد لي والدي.

- لكن بالتأكيد لها فائدة!

- بالتأكيد.. فالله لا يترك ما يخلق للصدفة..

أحسست بنبرة النصح بصوته لكن خيبة أمله كانت واضحة جداً. انحنى والدي أيضاً والتقط زهرة صفراء. قربها من أنفه ليشم عطرها غير الموجود قبل أن يقول بآسأ:

- التقاطي لهذه الزهرة آملاً بعطرها الزكي مثل مجيئي إلى
هنا متوقعاً إيجاد الحل..

رمى والدي الزهرة إلى العين لتجرها المياه معها. لاحقت عيناه
الزهرة حتى اختفائها بين الصخور نهاية القوس ثم التف والدي
نحو الباب للمغادرة. نظرت لثوان إلى العين لأحاول رؤية ما لم
نستطع رؤيته سابقاً. أدت نفسي خائباً مثل والدي ومشيت
خطوتين قبل أن أدير رأسي لألقي نظرة أخيرة نحو عدوي..
لكنني وجدت حليفاً.

توقفت مكاني عندما لمحت الزهرة الصفراء تسير مع الماء قادمة
من بين الصخرتين. التف والدي إليّ بينما عدت لأقترب من
العين وكانت الزهرة قد اختفت مجدداً بين الصخور. انتظرت
لثوان أخرى لتعود الزهرة مرة أخرى. اقترب والدي مني ومن
دون أي كلمة تتبعت عيناه الزهرة الصفراء التي كانت تدور مع
الماء بفترات منتظمة. تدور.

لم تكن العين تصب في أي مكان وأثبتت الزهرة الصفراء ذلك بدورانها المنتظم. وبينما كنت أراقب حركة الماء قهقهه والدي فنظرت نحوه مطالباً بتفسير ليقول لي بعدما سيطر على ضحكاته:

- هل حسبت سرعة دوران الماء؟

هزرت رأسي إيجاباً وقلت:

- تخرج الزهرة من بين الصخرتين كل ١٧ أو ١٨ ثانية..

- ١٧ ونصف.. لتكون دقيقاً..

لم أفهم سبب قهقهة والدي ليفسر لي:

- جدتك.. كما كان يصفها جدك رحمه الله.. بأنها أكثر

شخص يتكلم في العالم وأنها تتكلم ٢٤ ساعة في ٧

أيام.. طوال الأسبوع..

ابتسمت لقول والدي وفهمت سبب قهقهته:

- ٢٤ دورة كل ٧ دقائق ..

قلت له .

هز والدي رأسه وهو يبتسم وأكمل :

- يبدو أننا سنزور جدتك!

لم تأخذ الطريق إلى بيت جدتي طويلاً . طرق والدي الباب فجاء الصوت من الداخل مُرحباً :

- ادخل يا ابني!

ذلك نداء لم يوجه لي بحياتي أبداً لكنني وددت لو حدث ذلك .

رغبتني بذلك منعني من استيعاب الكثير مما دار بين أبي وجدتي التي كانت تصبغ شعرها الأبيض بواسطة الحناء الأحمر .

- له خصائص علاجية كثيرة ..

أبانت لي .

- هناك بعض الشعرات .. عند مقدمة رأسك!

أشرت لها فابتسمت وحملت مرآة يدوية بيدها اليسرى وغمست
أصابع يمينها بوعاء من الحناء لتصبغ شعرات ناصية رأسها.
لم تتكلم جدتي وهذا أثار الشكوك بداخلي. نظرت إلى والدي
الذي قام واحتضن والدته بحنان قبل أن تقول له:

- رضي الله عليك .. يا ابني .. أنت وابتك ..

نظرت جدتي بعدها نحوي وقالت:

- هذا ليس الدرع الذي تبحث عنه ..

لم أتكلم لدقيقة ثم سألتها:

- العائلة ..

ابتسمت جدتي بينما كانت تهز رأسها يميناً وشمالاً قبل أن
تعطيني المرأة الصغيرة وأشارت برأسها إلى باب إحدى الغرف ..
غرفة جدي رحمه الله.

قمت والمرآة بيدي ولحقني والدي إلى الغرفة. أشار والدي لي بالدخول قبله ففعلت. كانت الغرفة فارغة إلا من صندوق صغير موضوع على طاولة خشبية قديمة.

اقتربت من الصندوق وفتحته ليقترّب والدي منه ليرى ما بداخله، كانت ورقة صغيرة مكتوب عليها كلمة واحدة فقط بخط اليد.. "طالب". امتعض والدي لذلك فابتعد واتكأ على أحد الجدران وقال:

- هذه هي العلامة.. التي تثبت فشلي..

نظرت إلى أبي وقلت:

- هل سأبدو مثلك لو أطلت شعري قليلاً؟

- ستبدو مثل جدك.. تماماً!

رفعت المرآة بيدي اليسرى والورقة باليمنى وابتسمت. علّق والدي على ذلك:

- انظر إلى نفسك.. فأنت تشبهه حقاً.. رحمه الله..

لكنه لاحظ بعد ثوان بأني لم أكن أنظر إلى نفسي، بل إلى
الدرع. وبينما كانت الورقة يميني والمرأة بيساري، ابتسم
ثلاثتنا، أبي وأنا وجدتي التي لحقت بنا.

- إنه محق!

قال والدي.

- أقسم.. بالله.. أنه كذلك!

أكدت على كلامه.

هل وظفك؟

لم تكن حال شريف تختلف كثيراً عن حال أغلبية الخريجين من جيله فمعظمهم يبحث عن أمر ما؛ عروس، منحة لإكمال دراسته، وبحالة شريف، عمل. لم يكن البحث عن عمل صعباً لكن إيجاد واحد كان كذلك فباستخدام الإنترنت يمكنك البحث عن الكثير من الأعمال المتوفرة لكن أن تُقبل بهذا العمل فهو أمر آخر. وجد شريف إعلاناً لعمل على الإنترنت وكان وصف العمل "بائع كماليات سيارات" كان ذلك العمل ملائماً لشريف فهو لطالما أحب السيارات وكل ما يتعلق بها تقريباً.

استيقظ شريف في اليوم التالي بعد ليلة طويلة قضاها على الإنترنت يقرأ الأسئلة المتكررة في لقاءات التوظيف. ذهب شريف إلى الشركة وعندما دخلها وجد أن معظم الموظفين كانوا غائبين يومها فلم يكن هناك سوى شخص واحد وكان هو المسؤول عن التوظيف. ولقطة الموظفين في الشركة يومها اهتم المسؤول بأمور

أخرى مثل البيع فكانت تلك بشرى خير لشريف فعلى ما بدا
كانت الشركة تحتاج إلى موظفين كثر مما يزيد فرص توظيفه.

كان هناك شابان آخرا ن قبله ليقدا للشاغر الوظيفي فلم يفعل
أي شيء سوى الاستماع لمقابليتهما. تناول مسؤول التوظيف
ملف السيرة الذاتية للمتقدم الأول وقرأ اسمه لنفسه ثم سأل:

- كم لغة تجيد؟

- العربية والإنجليزية والعبرية والفرنسية وقليل من
الألمانية

هز مسؤول التوظيف رأسه باعجاب ثم سأل:

- وكيف تقيّم خبرتك بالحاسوب؟

- حاصل على شهادة قيادة الحاسوب الدولية

- جيد، وهل عملت بالمبيعات من قبل ولمّ لمّ تبق بالعمل

إن كان جوابك "نعم" على السؤال الأول؟

- نعم، وازدادت نسب المبيعات بالقسم الذي عملت به
بنسبة ٢٢ ٪ وسبب تركي للعمل كان تبني الشركة سياسة
جديدة تعطي أولوية العمل لسكان المدينة نفسها

بدا على مسؤول التوظيف الانبهار مما سمع وبدا الانبهار على
وجه شريف أيضاً، والخيبة كانت ظاهرة على وجهه كذلك. سلم
المدير على المتقدم الأول وأخبره بأن الشركة ستتصل به لاحقاً.
قام المتقدم الأول وجلس مكانه الشاب الثاني.

بدأت المقابلة الثانية بقراءة مسؤول التوظيف اسم المتقدم ليسأل
ببهجة:

- والدك هو الحاج اسماعيل؟!

- نعم، هو

- الحاج اسماعيل أبو سمير!! صاحب شركة الشفافية
للسيارات وصاحب العمارة المجاورة لنا؟

- هو بعينه

بانت على مسؤول التوظيف ابتسامة كبيرة ثم سلّم بحرارة على الشاب وأعطاه رقم جواله وقال له:

- هاك رقمي، اتصل بي وقتما أحبيت البدء بالعمل

ابتسم الشاب بدوره وقام.

جاء دور شريف المتوتر ليقابل لكن قبل أن يجلس أمام مكتب مسؤول التوظيف، اعتذر الأخير وطلب من شريف إعطائه خمس دقائق. خرج شريف يتمشى أمام الشركة وأجرى اتصالاً هاتفياً أيضاً قبل أن يعود إلى الداخل.

وقبل أن يبدأ مسؤول التوظيف بسؤال شريف، دخل شاب أنيق يلبس قميصاً أسود اللون إلى الشركة وألقى السلام قبل أن يصل المكتب ثم سأل:

- أيجاد عندكم مشغل اسطوانات اس تي اف يو للسيارات؟

فأجاب المدير بالإيجاب وهم بمساعدة الزبون لكن شريف أشار للمدير بيده أن يستريح مكانه وقام هو لتلبية طلب الزبون مُرحّباً:

- أهلاً وسهلاً، أنرت الشركة

- من نورك، أين المشغلات التي سألت عنها؟

كانت المشغلات على يمين الشابين ولم يكن هناك سوى جهازين
فقال شريف:

- حظك جميل!

خفت بعدها صوتهما ولم يبن سوى إشارات شريف الموحية
بجودة المنتج للزبون الذي ظهرت ملامح الإعجاب على وجهه.
كان المدير مسروراً مما رأى فاستراح في كرسي مكتبه الجلدي.

وأخيراً، هز الزبون رأسه بإشارة موافقة على شراء الجهاز
وابتسم شريف لهذا فقام المدير إليهما قبل أن يسأل الزبون:

- ممم، ما رأيك؟

- رائع جداً، وأظن أن سعره مناسب أيضاً ف ٥٠٠ شيكل
قليلة على جهاز بهذه الجودة وفيه ميزات لم أعلم بها من
قبل أن يخبرني بها هذا الموظف الآن

حمل الزبون الجهاز وغادر، وابتسم كل من شريف ومسؤول
التوظيف ليقول الأخير لشريف:

- مكانك محفوظ بالشركة

سر شريف لسماع هذا وبينما كان يهم بالخروج من الشركة دخل
شاب آخر من جيل شريف وكان ذلك الشاب صديقاً مقرباً من
شريف فسلم أولاً على المدير ثم سلم على شريف بحرارة وقال:

- أين أنت يا رجل؟! اتصلت عليك البارحة ولم تجب،
واتصل بك عيسى أيضاً لكنك لم تجب. بالمناسبة، رأيت
عيسى قبل قليل وبدا أنيقاً جداً بقميصه الأسود، يبدو أنه
مغرم! المهم، كان يحمل جهاز اس تي اف يو، أتعرفه؟ إنه
جهاز رائع، أخبرني أنه اشتراه توأ ب ٥٠٠ شيكل
وأخبرني أيضاً أنك ستشتريه منه، أحقاً كان ما أخبرني؟
كنت أود الاستفسار منه لكنه كان مستعجلاً! على كل
حال، إن كان لك أم له، ما رأيك أن نسهر هذا الخميس
معاً؟

كلمات حية

أكثر من أربعين سنة انقضت لكنني أتذكر جيداً قول والدي لي
عندما كنا نقطف الزيتون كل عام "كل صباح اشرب زيت زيتون..
تُكْدَر تهـد الباطون!" كان يقول ذلك كلّما رفع مقطّفاً ثقيلاً ممتلئ
بالزيتون. توفي والدي لكن بقيت كلماته حية؛ فأنا أتذكرها كل
صباح عندما أشرب فنجان قهوتي.

حطام

منذ ثلاثة عشر ساعة وخبر فقدان أثر الشرطي الذي كان بمناوبة
لوحده على الطريق الشمالي أثار قلقي فأنا أعمل على ذلك
الطريق ولوحدني أيضًا. منذ سماع ذلك الخبر لم أخرج من
سيارتي إلا للبحث عن شيء قد يساعد بإيجاد زميلي في السلك.
لم يكن يومًا جيدًا من البداية فبدايته كانت بترك زوجتي لي
وأخذها طفلي معها وكان هذا سببًا آخرًا دفعني للبحث عن
الشرطي رغم أن اليوم إجازة لي لكني رأيت أن عملية البحث
ستساعدني بتخطي أزمتي العائلية.

فقدنا آخر أثر للشرطي الساعة الرابعة وعشر دقائق البارحة
حين أرسل عبر اللاسلكي نداءً يشير إلى تتبعه سيارة مشبوهة،
لم أستمع إلا لتسجيل النداء. لكن المقلق كان نبرته التي أشارت
إلى سوء حاله. طوال الليل وأنا أذهب وأجيء بسيارتي على
الطريق الشمالي وكنت أحيانًا أترجل من السيارة وأضيء

بالمصباح اليدوي على أطراف الطرقات علي أجد أثراً للشرطي
لكن دون جدوى.

وجدت أمراً آخر أخذ انتباهي ووقتي فأثناء بحثي عن أثر
للشرطي المفقود رأيت سيارة فورد برونكو حمراء موديل ٩٢ تسير
بتهور فسرت خلفها وأطلقت البوق مرتين ليكن سائق السيارة
جانباً لكنه لم يلبّ الأمر. أبدلت شدة إضاءة أنوار سيارتي عدة
مرات فانتبه السائق وتوقف. ترجلت من سيارتي بحذر ويدي
على مسدسي المعلق على حزامي. عندما وصلت باب سائق
السيارة أمرته بالنزول فنزل بهدوء. كان رجلاً بأواخر عشرينياته
وكان أحرساً فلم أستطع التواصل معه بشكل جيد لكنه أشار لي
إلى المقعد الخلفي لسيارته فنظرت ووجدت امرأة بمخاضها.
وكانت ماء رأس الجنين قد سالت بالفعل فتوجب علينا إيصالها
إلى أقرب مستشفى بسرعة. كانت حالة الرجل رثة جداً فنقلت
وإياه المرأة إلى سيارتي. ركن الرجل سيارته بعيداً عن مسار
السيارات ورافقني إلى أقرب مستشفى.

رافقت الرجل وزوجته بهدوء إلى قسم التوليد بالمستشفى وعدت إلى سيارتي وكنت نعساً جداً، فتحت الباب وركبت السيارة لأجد زجاجتي خمر عند دواسة الوقود فاستغربت ذلك لوقت قصير، فالنعاس غلبني سريعاً، نمت لوقت لم أعلم كم طال ولم استيقظ إلا على صوت نداء اللاسلكي "تنبيه! تنبيه! إلى كل الوحدات المتوفرة على الطريق الشمالي، وجدنا سيارة الشرطي المفقود في حادث سير قاتل بالواد خلف محطة الوقود الرئيسة على الطريق. السيارة الأخرى هي فورد برونكو حمراء موديل ٩٢. جميع من في الحادث لقوا حتفهم. الشرطي وركاب السيارة الثانية وهم رجل أبيض بأواخر عشرينياته وزوجته الحامل.. الرجاء التوجه إلى مكان الحادث..."

ضياع

ما الأصعب: أن تضيع جسداً أم روحاً أم ذاكرة؟ كلها صعبة، وما يزيدُها صعوبة هو عدم إدراكك لضياعك. أما معرفتك بأنك ضائع فهذه الخطوة الأولى نحو عودتك إلى الطريق الصحيح، إن كنت عليه في المقام الأول.

أعلم أنني ضائع، لم أفقد عقلي كله وهذا جيد إلى حد ما، فهذه النقطة ستكون نقطة إنطلاقي لإيجاد ما ضاع من ذاكرتي. استخدمت "ما" للتخفيف من شدة الحادثة، فأنا أعلم أن "ما" يرافقها "من" في حالتي. لا أعلم "من" تماماً لكنني أعرف أنني افتقدت ناساً، وربما هم افتقدوني! كم أنا متفائل! لا أحب استخدام "فقد" فهي توحى إلي بالاعودة وأنا أحب عودة ما نحب إلينا وعودتنا إلى ما نحب، "ما" هنا بالطبع تشمل "من".

"من" أنا؟! استيقظت بعد عدة أيام في غرفة مستشفى خاص بمدينةتنا ليخبروني بأني تلقيت ضربة على رأسي خلال مظاهرة

ما. تحسست رأسي فلامست أطراف أصابعي مكان الضربة. لم يكن هناك أحد من عائلتي في المشفى لحظة استيقاظي. حاولت ذكر أسمائهم لنفسي فتذكرتهم جميعاً. تكلمت مع نفسي لطمأننتها. سميت ما رأيت في الغرفة. "ما" هنا لا تشمل "من".

لم يكن أحد بالغرفة سواي. لم أضغط على زر استدعاء الممرضة. حاولت تذكر السبب الذي جاء بي إلى هنا، لم أقدر. إلا أنني شاهدت صوراً متقطعة لعدد غفير من الناس، وفتاة، لوحدها. لا الناس ولا الفتاة ظهروا بصورة واضحة. لا أعلم إن كانت تلك بواقى ذكريات أم مجرد تخيلات!

هناك سبب دفعني لقول "بواقى ذكريات" فالطبيب أخبرني بأن جزءاً بسيطاً من ذاكرتي قد تضرر فحاولت تذكر نفسي بكل الناس والأمور والأحداث التي عرفتھا. لكن كيف أذكر نفسي بشيء أو "شخص" مُحي من ذاكرتي؟! الأمر كأنني طلبت من نفسي أن تتعرف على شخص لم تقابله قط!

سرت عائلتي بحالتي بادئ الأمر، والأطباء كذلك. صحتي البدنية كانت جيدة جداً واستطعت أن أتعرف على أسماء أفراد عائلتي

بسهولة. سررت بذلك جداً أولها، إلا أن ذكرهم لأسماء وأحداث لم أميز منها أمراً أثار فضولي، ثم قلقي. هونت على نفسي بأنهم كانوا يتحدثون عن شؤون تخصهم.

ملاح جهلي بالمواضيع التي تحدثوا بها ظهرت جلياً على وجهي. فسألتني أختي سماح "أنت لا تتذكر، أليس كذلك؟!" لو مددت يدي نحوها لاستطعت ملامسة الشفقة التي رافقت حروفها! لم يكن صعباً عليّ ملاحظة نظرات أمي اللائمة لأختي فأدركت أن ما ضاع كبير. "ما" هنا تعني "من".



اكتواء

[goodreads/Abdullah Abu Snaineh](https://www.goodreads.com/author/show/Abdullah_Abu_Snaineh)

